ضرب الأمثال في القرآن

أهدافه التربوية وآثاره

إعداد

عبد المجيد البيانوني

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم

اللّٰهُمَّ إليك أرفع هذا العمل،

فتقبله مني..

واجعله في صحيفة والدي..

إنك سميع الدعاء..

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده وسوله..

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ. كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٨-٥٩]

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾

[الإسراء: ٨٩]

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾

[الكهف: ٥٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، الحمـد لله الذي أنـزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً، قيماً لينذر بأساً شـديداً مـن لدنـه، ويبشرـ المـؤمنين الذي يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً.

والصلاة والسلام التامان الأكملان على سـيدنا محمـد، الذي بعـث معلمـاً وهاديـاً للناس، ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنـه وسراجـاً منـيراً، يتلـو علـيهم آيـات الله، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، فكان خـير نـبي علَّـم وأرشـد، وبشَّرـ وأنـذر، وزكى وطهَّر، أرسله الحق سـبحانه رحمـة للعـالمين، صـلى الله تعـالى عليـه وعلى آله وأصـحابه وأنصاره وأتباعه، وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فإن خير ما اشـتغل بـه المشـتغلون، ومـا انصـرفت إليـه همـم الكتَّـاب والباحثين، العكوف على كتاب الله تعالى، وسنة نبيه الكريم، عليه أفضل الصـلاة وأتـم التسليم، لاستنباط ما فيهما من ذخائر مكنونة، وكنوز ثمينـة، لا ينضـب معينهـا، ولا تبلى جِدَّتها، وهي لا تزال كما كانت تمدُّ القرون والدهور بأعظم أسـباب الحيـاة، وأكـرم المعاني الإنسانية التي لا يمكن بغيرها أن تتحقق كرامة الإنسـان، أو تعـرف مكانتـه في هذا الوجود..

وإن من أهم الموضوعات القرآنية التي ينـبغي أن تنـال اهتمـام البـاحثين، وعنايـة الدارسين (الأمثال القرآنية)، لما لها من دور كبير في تحقيق الهدف الأمّ من نزول القرآن

الكريم، ألا وهو هداية النفس البشرية، وقيادتها إلى بارئها سبحانه وتعالى، لتتحقق بعبوديته بالطوع والاختيار، كما هي منقادة لنواميسه بالقهر والاضطرار..

ولقد كانت عناية العلماء قديماً بأمثال القرآن الكريم جزءاً من عنايتهم بإعجاز القرآن، وأسلوبه البياني المتميز، ويعدُّ ما وصلنا من الكتابات الخاصة بأمثال القرآن الكريم قليلاً ـ نوعاً ما ـ عما تناولته دراسات العلماء واهتماماتهم المتعلِّقة بالقرآن.

وأكثر هذه الكتابات تناولت الأمثال من الناحية اللغوية البيانية، أو البلاغية الاصطلاحية.

أما تناول الأمثال من الناحية التربوية، فلم أجد فيما اطلعت عليه ـ على قلة اطلاعي ـ مِن المتقدمين مَن درس الأمثال القرآنية أو النبوية، دراسة تربوية منهجية مقصودة.. على أهمية هذا الجانب، وخدمته للمنهج القرآني، ودوره في تربية الفرد وإصلاحه وتوجيهه.. وهذا ما جعلني في هذا البحث أمام موضوع بِكْر، لم أجد من تناوله، أو مهَّد طريقه، وذلَّل عقباته..

قد يكون عذر الأقدمين في الالتفات عن هذا الموضوع أن اشتغالهم بتوضيح المعاني القرآنية، وإبراز جوانب الإعجاز المتعددة، هو المناخ الملائم لنقل النفوس إلى جواء التأثير القرآني، وجعل القلوب تستروح أنسام الإيحاءات التربوية، على حسب استعداد كل إنسان، وتهيئه لذلك.

ولا شك أن احتياجات العصر تجعل مثل هذه الدراسات التربوية ضرورةً ملحّةً، ومطلباً أساسياً، لمخاطبة الجيل المعاصر بما يناسب اهتماماته ومشكلاته وواقعه، ولتقريب حقائق الهداية الإلهية من القلوب.

ولعلَّ أقرب دراسة معاصرة تناولت الجانب التربوي عامَّة في القرآن الكريم، وتدخل في ذلك (الأمثال القرآنية)، ما كتبه (سيد قطب) رحمه الله تعالى في كتابه النفيس: (في ظلال القرآن)، فقد احتلَّت الدروس التربوية مركزاً بارزاً، وحيِّزاً ضخماً في

توجّهه وعنايته.. وكانت له تحليقات قيّمة في استكشاف الخطوط التربوية التي تمثّل هداية القرآن الكريم، وأسلوبها التربوي الدقيق..

وهذه محاولة متواضعة لدراسة (الأمثال القرآنية) من الناحية التربوية، وقد حرصت على الاستشهاد بأمثال من الحديث النبوي، في كل مناسبة، إلا عندما رأيت أن الكلام قد طال عند أثر من الآثار التربوية، فآثرت عندها الاختصار.. وإن كانت الأمثال النبوية لجديرة بدراسة مستقلة وافية شاملة، لتنال حقها من الاهتمام والعناية..

ولا شك أن أمثال القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، تختلف اختلافاً جذرياً عما يضربه الناس من الأمثال، فهي أمثال حقٍّ وصدق، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولا يداخلها نقص في أي جانب من جوانبها، وهي أمثال دقيقة شاملة، تحقِّق دراستها أهدافاً وآثاراً بلاغية، وتشريعية وتربوية، فهي الأنموذج الأمثل، والصورة العليا، والميزان الدقيق لكل مثل يمكن أن يُضرب..

والقرآن والسنة مصدر التشريع للبشرية كلها، وفيهما منهج تربوي كامل، فالانطلاق من أمثال القرآن والسنة يجمع إلى موضوع المثل ومضمونه، وتنوّع الجوانب التي عالجها، الاستهداءَ بالمنهج التربوي، والخطوط العريضة التي يهيمن على النفس البشرية من خلالها.

وهذا أمر بالغ الأهمية والفائدة لكل مشتغل بالتربية مهتم بشأنها.

ولقد رأيت أنه من الضروري لإعطاء الموضوع حقه أن أمهِّدَ للآثار التربوية بذكر الأهداف التربوية العامَّة، ثم الأهداف التربوية الخاصَّة، وذلك لما أن معرفة الأهداف التربوية عامِّها وخاصِّها، مما يُهمُّ كل باحث معتن بأمر التربية، ولما بين الأهداف والآثار من وثيق الارتباط والاتصال.

هذا، وقد رأيت أن أرتِّب هذه الدراسة في خمسة مباحث، وخاتمة:

المبحث الأول: في معنى المثل وضرب الأمثال، وأنواعه، وأوجه وروده في القرآن الكريم، وأهمية إيراده في الكلام وفائدته.

المبحث الثاني: الأهداف التربوية لضرب الأمثال في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: الآثار التربوية لضرب الأمثال في القرآن الكريم.

المبحث الرابع: الأمثال القرآنية في الميدان التربوي، أو كيف يستفيد المربي من الأمثال القرآنية.

المبحث الخامس: التصنيف الموضوعي للأمثال القرآنية.

الخاتمة: ونسأل الله تعالى حسنَها..

واللهَ تبارك وتعالى أسال أن يجنبني الزلل، ويرزقني الإخلاص والسداد في القول والعمل، ويوفقني للإحسان في كل شأن، إنه سبحانه أكرم مسؤول، ومنه التوفيق والقبول.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

جدة، غرة المحرم ١٤١٠هـ.

د. عبد المجيد البيانوني

المبحث الأول:

في معنى المثل وضرب الأمثال، وأنواعه، وأوجه وروده في القرآن الكريم، وأهمية إيراده في الكلام وفائدته.

ونبحث فيه المطالب التالية:

المطلب الأول: الأصل اللغوي للمثل، ووروده القرآني.

المطلب الثاني: أنواع الأمثال ونماذجها.

المطلب الثالث: معنى (ضرب) الأمثال.

المطلب الرابع: الفرق بين الحكمة والمثل.

المطلب الخامس: أهمية الأمثال وفائدتها في القرآن الكريم.

المطلب السادس: مواقف الناس من أمثال القرآن الكريم.

المطلب السابع: النهي عن ضرب الأمثال لله.

المطلب الثامن: من خصائص (الأمثال القرآنية) وإعجازها.

المطلب الأول: الأصل اللغوي للمثل، ووروده القرآني

ـ قال الإمام الراغب الأصفهاني في (المفردات): (أصل المُثُولِ: الانتصاب، والمُمَثَّلُ: المصوّر على مثال غيره، يقال: مَثُلَ الشيءُ.

أي: انتصب وتصوّر، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلم: «من أحبّ أن يمثل له الرّجال فليتبوّأ مقعده من النّار».

والتِّمْثَالُ: الشيء المصوّر، وتَمَثَّلَ كذا: تصوّر. قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ [مريم: ١٧] والمَثَلُ عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبيّن أحدهما الآخر ويصوّره. نحو قولهم: «الصّيف ضيّعت اللّبن» فإن هذا القول يشبه قولك: أهملت وقت الإمكان أمرك. وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال، فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وفي أخرى: ﴿وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. والمَثَلُ يقال على وجهين:

أحدهما: بمعنى المثل، نحو: شبه وشبه، ونقض ونقض. قال بعضهم: وقد يعبّر بهما عن وصف الشيء. نحو قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥].

والثاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أيّ معنى كان، وهو أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، وذلك أنّ النّدّ يقال فيما يشارك في الجوهر فقط، والشّبه يقال فيما يشارك في الكيفيّة فقط، والمساوي يقال فيما يشارك في الكمّيّة فقط، والشّكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط، والمِثْلَ عامّ في جميع ذلك، ولهذا لمّا أراد الله تعالى نفي التّشبيه من كلّ وجه خصّه بالذّكر فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وأما الجمع بين الكاف والمثل فقد قيل: ذلك لتأكيد النّفي تنبيها على أنه لا يصحّ استعمال المثل ولا الكاف، فنفى بـ «ليس» الأمرين جميعاً. وقيل: المِثْلُ هاهنا هو بمعنى الصّفة،

ومعناه: ليس كصفته صفة، تنبيها على أنه وإن وصف بكثير ممّا يوصف به البشر فليس تلك الصّفات له على حسب ما يستعمل في البشر [1].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] أي: لهم الصّفات الذّميمة وله الصّفات العلى. وقد منع الله تعالى عن ضرب الأمثال [2] بقوله: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] ثم نبّه أنه قد يضرب لنفسه المثل، ولا يجوز لنا أن نقتدي به، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤] [3]، ثمّ ضرب لنفسه مثلاً فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً﴾ الآية [النحل: ٧٥]، وفي هذا تنبيه أنه لا يجوز أن نصفه بصفة مما يوصف به البشر إلا بما وصف به نفسه) [4].

ـ وقال الإمام ابن جزي رحمه الله تعالى في مقدمة تفسيره: (مثل بفتح الميم والمثلثة، لها أربعة معان: الشبيه والنظير ومن المثل المضروب، وأصله من التشبيه، ومثل الشيء حاله وصفته، والمثل الكلام الذي يتمثل به، ومثل الشيء بكسر الميم: شبهه) [5].

ـ وقال الإمام الدامغاني في كتابه قاموس القرآن: (مَثَل على أربعة أوجه السنن. العربة. الصفة. العذاب..

فوجه منها: المثل بمعنى السنن. قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ يعني سنن الذين مضوا، ومثلها في سورة الزخرف: ﴿وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾.

---

(1) ـ انظر: المبحث النفيس الذي حققه الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز في معنى هذه الآية في كتابه: (النبأ العظيم) ص ١٣٢ـ ١٣٦، فارجع إليه فإنه مبحث نفيس، ويكشف لك عن سر الإعجاز الإلهي في هذا الحرف.

(2) أي (له).

(3) ـ سنقف عند هذه الآية الكريمة وقفة يتجلى بها المراد منها بعون الله تعالى في نهاية هذا المبحث.

(4) ـ المفردات: ٤٦٢.

(5) ـ التسهيل لعلوم التنزيل ١: ٢٧.

الثاني: المثل العبرة. ومنه قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ يعني عبرة. ومثلها فيها أيضاً: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي عبرة.

الثالث: المثل الصفة، ومنه قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ يعنى صفتهم. ومثلها في سورة العنكبوت والحشر: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾. كقوله تعالى في سورة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يعنى صفة الجنة. مثلها في سورة الرعد. ونحوه.

الرابع: المثل يعني العذاب، قوله تعالى في سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ يعني وصفنا لكم العذاب. ومثلها في سورة الفرقان)[1].

ـ ولا يخفى أن تفسيره للمثل بهذه الأمور الأربعة لا يسلَّم، إذ فيه قصـر لبعض الآيات على معنى لم تَقم عليه قرينة، ولم يُلجئ إليه سياق.. كما أن الأصل اللغوي للمثل أتى به بمعنى الصفة.. وبينهما بُعْد ظاهر، وعموم وخصوص، يجعل تفسير أحدهما بالآخر فيه تجوُّز كبير..

ـ ومما يَرِد على هذه المعاني التي أوردها للمثل أن (المثل) ليس من قبيل المشترك اللفظي ليصح ذكر هذه المعاني الأربعة في نسق واحد.

ـ وقال الإمام الحسن اليوسي في كتابه: (زهر الأكم في الأمثال والحكم): (المثل بفتحتين يرد على ثلاثة أضرب:

الأول: الشبه، يقال: «هذا مثل ذلك» أي شَبَهه؛ ويقال أيضاً: «هو مِثْله» بكسر فسكون، و«مثيله»، كما يقال: شَبَه وشِبْه وشبيه، فإذا قيل: «هو مُثَيْله»، و«هم أُمَيْثالهم» بالتصغير، فقد أريد أنَّ المشبه حقير، كما أن هذا حقير...

---

[1] ـ قاموس القرآن: ٤٢٨ـ ٤٢٩.

ومنه: الأمثل من الناس وهو الأفضل؛ لأن معناه الأشبه بالأفضل والأقرب إلى الخير، وأماثل القوم خيارهم. قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ [طه: ١٠٤]، ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه: ٦٣]، أي التي هي أشبه بالحق والفضيلة، وهي تأنيث أمثل.

وتقول: مثَّلت الشيء بالشيء إذا شبَّهته به تمثيلاً وتَمثالاً بفتح التاء، كالتسيار والتطوف. وأما التِّمثال بالكسر فالصورة المصورة، جمعها تماثيل. يقال: مثَّله له، أي صوَّره له حتى كأنه ينظر إليه. وتمثَّل تصوَّر، قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ [مريم: ١٧]. وتماثل الشيئان: تشابها. ومَثَل الشيء: مقداره.

وقولهم: مَثَلْتُ بفلان مُثلة، ومَثَّلتُ به تمثيلاً: أي نكلت به وأوقعت به عقوبة، من هذا؛ لأن معناه أنّه جعله مثالاً يرتدع به الغير (١).

والضرب الثاني: الصفة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]، أي صفتها ونحو هذا، وهو كثير في القرآن. وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ، وَلِلّهِ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، أي لهم الصفات الذميمة وله الصفات العلى. ويقال في هذا المعنى أيضاً: مثال.

والضرب الثالث: القول السائرُ المشبَّه مضربه بمورده، وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال في القرآن. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٣]، وعلى هذا شاع إطلاق اسم المثل إذا أطلق (٢).

---

(١) . قارن هذه الفقرة بما سبق مِن حمل الإمام الدامغاني للمثل والأمثال على معنى العذاب، واستشهاده على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾.

(٢) . زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسن اليوسي ١: ١٩ ـ ٢٠.

نظرة جامعة

من خلال ما تقدم من النصوص نخلص في تحديد المراد من (المثل) في الاستعمال القرآني إلى الحقائق التالية:

ـ أولاً: أنَّ الأصل في الاستعمال القرآني لمعنى المثل يعود إلى الضرب الأول الذي تحدث عنه الإمام اليوسي، وكذلك الإمام الراغب، وعدَّه أصلاً أفاض في الحديث عنه، وهو المعنى اللغوي للمادة، وما سوى ذلك منتزع من الأصل، وينزع إليه..

ـ ثانياً: أنَّ بين الضرب الأول ـ على حسب ترتيب الإمام اليوسي ـ والضرب الثالث اتصالاً وثيقاً، كما بين الأصل اللغوي والتواضع الاصطلاحي، فالضرب الثالث لا يعدو أن يكون وليد الأصل اللغوي للمادة، وفرع أرومتها وجذرها، فكان ينبغي أن يذكر جواره وقرينه.. مع ملاحظة أن ما ذكره في الضرب الثالث لا يشمل أمثال القرآن الكريم بأنواعها، مما سيأتي إيضاحه وبيانه قريباً بإذن الله تعالى.

ـ ثالثاً: أنَّ التفسيرات الأخرى لمعنى المثل، ـ وفي الاستعمال القرآني على وجه الخصوص ـ لا تعدو أن تكون تفسيرات مجازية، وبعضها تفسيرات محل نظر؛ لأن فيها تجوُّزاً ظاهراً.. فلا يسلَّم التفسير بها إلا إذا صحَّ النقل فيها عن أئمة المفسرين من السلف، أهل البصيرة باللغة، ثم لا بدَّ أن يقوم بينها وبين الأصل اللغوي للمادة نسب صريح، تزكِّيه قرينة واضحة، ويرفع أعلامه سياق مطاوع..

ثم علينا أن نلاحظ أن كثيراً من السلف، إنما كانوا يفسِّرون الجملة من القرآن الكريم أو اللفظة في مناسبة ما ببعض دلالتها، أو ببعض معانيها، ثم يفسرونها في مناسبة أخرى ببعض آخر.. ولا يريدون بذلك أن القول من قولهم هو كل ما تدلُّ عليه الآية، فمن الخطأ أن نأخذ قولاً عنهم أنه القول في الآية وحسب..

ـ فمن هذا ما نحن بصدده من تفسير (المثل) بمعنى: (السنة، والعبرة، والعظة والعقوبة، والحجة، والأمر العجيب، والآية الدالة على شيء)، وبعض ذلك ورد معنا فيما سبق من نقول.

فتلك التفسيرات لا بدَّ أن نجد لها النسب الصريح للأصل اللغوي للمادة، ثم هي في أغلب الأحوال قول من الأقوال في تفسير الكلمة، أو تفسير للكلمة ببعض مدلولاتها لقرائن تحفّها، أو تجوُّز في تفسير الكلمة أحياناً.. أو إن شئت فقل: توسُّع..

ويبقى الأصل اللغوي هو المرجع للبيان القرآني، والأعمق في مدلوله.

ـ رابعاً: عدَّ الإمام الحسن اليوسي الضرب الثاني من معنى المثل: (الصفة)، وذكر نماذج من القرآن الكريم لمجيء المثل بمعنى الصفة، وتوسَّع الإمام الدامغاني في تفسير أمثال للقرآن الكريم أنها بمعنى (الصفة)، حتى إنه لم يذكر فيما ذكر من معاني (المثل) الأصل اللغوي، ولا الفرع الاصطلاحي.. وقدم أمثلة كلها محل نظر ولا تسلَّم، وقد سبق نقل كلامه قريباً.

فأما عدُّ (المثل) بمعنى الصفة ضرباً مستقلاً في المعنى، وهو ما صنعه الإمام اليوسي فلا يسلَّم.. وزاد عليه الإمام الدامغاني ففسَّر (المثل) بالصفة في كثير مما جاء في القرآن الكريم، فلا يسلَّم ولا يصحّ.

وإنما تفسير (المثل) بالصفة ضرب من التجوز في المعنى، لا يلغي أصل الكلمة الأصيل، ولا يطغى على استعمالها الاصطلاحي الذي سلكه القرآن الكريم في بيانه المعجز.

على أنَّ مِن أئمة اللغة مَن ردَّ مثل هذا القول وأنكره، ولم يجد له ما يبرِّره.

نقل الإمام ابن منظور في (لسان العرب) عن ابن سِيده قوله: (وَقَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾؛ قَالَ اللَّيْثُ: مَثَلُها هُوَ الخَبَرُ عَنها)، ولاحظ أن مثل

هذا القول لا يمكن أن يحمل إلا على التجوُّز في التفسير، (وَقَالَ أَبو إِسحق: مَعْنَاهُ صِفة الجَنَّةِ، وَرَدَّ ذَلِكَ أَبو عَلِيٍّ، قَالَ: لأَن المَثَلَ الصِّفَةُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ فِي كَلَامِ العَرَبِ، إِنما مَعْنَاهُ التَّمْثِيل).

وقال مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الثُّمَالِيُّ فِي كِتابِ (المُقتَضَبِ): (ومَنْ قَالَ: إِن مَعْنَاهُ صِفةُ الجنةِ فَقَدْ أَخطأَ؛ لأَن مَثَل لَا يُوضَعُ فِي مَوْضِعِ صِفَةٍ، إنما يُقَالُ: صِفَةُ زَيْدٍ إِنه ظَرِيفٌ وإِنه عاقلٌ. وَيُقَالُ: مَثَلُ زَيْدٍ مَثَلُ فُلَانٍ، إنما المَثَل مأْخوذ مِنَ المِثال والحَذْوِ، والصفةُ تَحْلِية ونعتٌ) ( )[1].

وهذا الكلام إنما يدل على أن الأصل في التمثيل مقارنة شيء بشيء وقياسه به، وهو فقه للغة وجيه، واحتكام إلى الأصل اللغوي لا مَناصَ منه.. على أن ذلك لا يمنع أن يكتسب المثل في بعض المواطن معنىً إضافياً، تقوم عليه قرينة، ويرشد إليه سياق..

أما أن لا تفسَّر كلمة (مثل) في الآية إلا بالصفة، وأن يحتج بالآية في كتب اللغة على أن معنى (مثل) صفة سواء بسواء.. أما أن يكون ذلك كذلك فلا.. ثم لا ( )[2].

( ) ـ لسان العرب، مادة (مثل)، ١١: ٦١٢.

( ) ـ والآية التي أكثر المفسرون من تفسير المثل فيها بالصفة، واحتج بعض أئمة اللغة بها على ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]، ومثلها: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

هاتان الآيتان لا يعيّن السياق تفسيرهما بذلك، وإنما سياق الآيتين تمثيل حال أهل الجنة، وما أعد الله لهم فيها من نعيم مقيم، ومقارنة ذلك بحال أهل النار وحالهم فيها من عذاب أليم، وشقاء مقيم، ولا أدل على ذلك من سياق الآيتين وختامهما، فختام آية الرعد: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾، وسباقها الحديث عن عذاب الكافرين، وختام آية سورة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾، وهو أظهر وأدل على المطلوب وأبين.. كما أن سباقها قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]. وانظر كلام الإمام الرازي في تفسيره لآية سورة محمد عليه الصلاة والسلام [٢٨: ٥٧].

والحديث عن أنواع الاستعمال القرآني للمثل يتَّصل بنا بالقول في بيان أنواع المثل على وجه العموم، وما أضافه القرآن الكريم على البيان من أوجه ومعانٍ جديدة، وهذا ما نتحدث عنه تحت المطلب الثاني، وهو:

المطلب الثاني: أنواع الأمثال ونماذجها

وتنقسم الأمثال إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الكلمة الشائعة على الألسن التي قال عنها الإمام الراغب كما سبق نقل كلامه: (... قول في شيء، يشبه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوِّره، نحو قولهم: الصيفَ ضيعتِ اللبن...).

ونقل الميداني عن المبرد أنه قال: (المَثَلُ مأخوذ من المِثال، وهو: قولٌ سائرٌ يُشَبَّه به حالُ الثاني بالأول، والأصل فيه التَّشْبِيه... وحقيقته ما جُعل كالعَلَم للتشبيه بحال الأوَّل، كقول كعب ابن زهير:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَها مَثَلاً... وَمَا مَوَاعِيدُهَا إلاَّ الأبَاطِيلُ

فمواعيد عرقوب عَلَم لكل ما لا يصح من المواعيد.

قال ابن السِّكِّيتِ: المَثَلُ: لَفْظٌ يخالفُ لفظَ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ) [1].

ولعلَّ من فسَّر (المثل) بالصفة في بعض أمثال القرآن الكريم، حمله على ذلك ما تضمنه المثل من ذكر صفات للممثَّل، أو ذكر صفات للممثَّل به، أو أن الممثَّل به لم يصرِّح القرآن الكريم بذكره، أو أنه ألح إليه إلماحاً.. وكل ذلك ومثله معه لا يخرج (المثل) عن أن يكون (مثلاً) بمعناه الاصطلاحي الواسع.

وأما ما قيل: إن كلمة (مثل) في الآيتين السابقتين زائدة، فقول من القول زائد، لا يلتفت إليه بحال من الأحوال، ولا يُنفَق في رده أدنى مقال..

[1] - مجمع الأمثال ١: ٥-٦.

وهذا المعنى للمثل هو السابق للذهن عند الإطلاق، ويسمَّى: (المثل السائر) لذيوعه وشيوعه في الناس. وقد جاء لآلئ منثورة في القرآن الكريم، هي سِرٌّ من أسرار إعجازه، وقبس من أنوار بيانه..

قال الإمام السيوطي في كتابه: (الإتقان في علوم القرآن): (عقد جعفر بن شمس الخلافة في كتاب الآداب باباً في ألفاظ من القرآن جارية مجرى المثل وهذا هو النوع البديعي المسمى بإرسال المثل وأورد من ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨]، ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، ﴿الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨]، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]، ﴿وَلا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الإحسَانِ إِلَّا الإحسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١]، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]، ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨١]، ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]، ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١]، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢٤]) (١).

(١) . الإتقان في علوم القرآن ١: ١٣٣. وقد أضفت على النص تخريج الآيات الكريمة.

النوع الثاني: ما يكون فيه تشبيه معقول بمحسوس أكثر وضوحاً، وهو المعروف بالمثل القياسي، وهو سردٌ وصفي أو قصصي، أو صورة بيانية لتوضيح فكرة ما عن طريق التشبيه والتمثيل. ويسميه البلاغيون: (التمثيل المركَّب).

فإنه تشبيه شيء بشيء، لتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسَيْن إلى الآخر، أو اعتبار ـ أي قياس ـ أحدهما بالآخر، لغرض التأديب والتهذيب، أو التوضيح والتصوير، أو الإقناع العقلي، وإقامة الحجة، وهذا النوع فيه إطناب إذا قورن بسابقه، ويجمع بين عمق الفكرة، وجمال التصوير، والمقارنة بين المِثل ومثله..

وهذا النوع لا يغني عن سابقه، كما لا يغني عنه سابقُه، ولكل مقام مال..

ومن أمثلة هذا النوع في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ [البقرة: ١٧]، ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ...﴾ [النور: ٣٥]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ...﴾ [الحج: ٧٣].

وهي كثيرة في كتاب الله تعالى، وسيمرُّ بنا أكثرها في مناسباتها لموضوعنا، إذ إنها المقصد الأساسي من البحث، وقد نصبت هذه الدراسة على هذا النوع من الأمثال؛ لأن آثارها التربوية أعمُّ من النوع الأول وأظهر، فهي أعمق تأثيراً، وأجلى تصويراً، أما النوع الأول فتبرز فيه الناحية البلاغية أكثر من الناحية التصويرية المؤثرة.

وهذا النوع يمكن أن يقسم إلى قسمين:

القسم الأول: التشبيه التمثيلي الذي ذكرنا فيه المثل، والممثَّل، والممثَّل به، وأمثلته ما ذكرناه آنفاً من الآيات الكريمة..

والقسم الثاني من النوع الثاني: يلمح فيه التشبيه التمثيلي من السياق دون أن يصرَّح فيه بذكر المثل، والممثَّل، والممثَّل به، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله

تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

ويمكن أن يسمى هذا القسم: (التمثيل الضمني).

وقد عدَّ الإمام السيوطي الأمثال القرآنية السائرة التي ذكرنا نماذج منها في النوع الأول، عدَّها من الأمثال الكامنة التي لا ذكر للمثل فيها، فقال في الإتقان: (أمثال القرآن قسمان: ظاهر مصرَّح به، وكامن لا ذكر للمثل فيه...) ( )، ثم ذكر نماذج من النوعين، فعدَّ الأمثال السائرة أمثالاً كامنة، وكان الأولى أن يعدَّ الأمثال السائرة نوعاً قائماً على حدِّه؛ لأنه لا يُتصوَّر ذكر التمثيل فيه، وإنما هي جمل قرآنية ذهبت مثلاً..

وأما الأمثال الكامنة فهي قسم من الأمثال القياسية التمثيلية التي تسمى: (تمثيلاً مركباً)، فمن حقها أن تدخل فيها..

النوع الثالث: الأمثال التاريخية، وهي تشبيه واقع قائم بوقائع تاريخية، وقصص واقعية، وما آلت إليه، لتشابه الممثل معها في الأوضاع والمواقف والسلوك.

أو هي تمثيل حالة قائمة بصورة تاريخية معروفة، لبيان سنة الله تعالى في عباده، والترغيب والترهيب، والوعظ والتذكير، ولتحقيق أهداف تربوية متعددة.

( ) . الإتقان في علوم القرآن ١: ١٣٣.

ومن هنا دخل على الإمام الدامغاني ـ كما سبق النقل عنه ـ أن يفسِّر المثل بالعذاب في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ في سورة إبراهيم، ومثلها في سورة الفرقان، على أن العذاب إن هو إلا بعض ما تضمَّنته الأمثال التي ضربها الحق لعباده، ويؤكِّد هذا المعنى ويوضِّحه أكثر قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾، فهلاك المكذبين كان عاقبة للأمثال التي ضربت لهم، فلم يتَّعظوا بها ولم يعتبروا، وهي ـ أي الأمثال ـ أعم من أن تكون عقوبات موصوفة فحسب.

ومما يدل على هذا النوع من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [آل عمران: ١٠ـ ١١]، كأنه تعالى يقول: مثلهم كمثل آل فرعون، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٥ـ ١٦].

ـ وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ. وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤ـ ٤٥].

ـ وقال سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ القَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا المُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣].

ـ وقال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧].

والأمثال في القرآن الكريم من هذا النوع كثيرة.

المطلب الثالث: معنى (ضرب) الأمثال

نقول: ضرب الله سبحانه لعباده الأمثال، وضرب الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته الأمثال، وضرب الحكماء والعلماء والمؤدبون الأمثال.

فما معنى ضرب الأمثال؟

١ـ قد يكون أخذاً من معنى (الضرب في الأرض) أي السير فيها، قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

ومعنى (ضرب المثل) على ذلك: جعله ينتشر ويذيع في البلاد والعباد، أو جعله يسير في الكلام وينتشر ويشتهر. والمعنى وإن كان قريب المأخذ لكن يبعده أن ضرب المثل جاء متعدياً بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾، والضرب في الأرض جاء متعدياً بحرف الجر.. واختلاف التعدي ينقل الفعل من باب في المعنى إلى باب..

٢ـ وقد يكون بمعنى نصبه للناس بإشهاره، لتستدل عليه خواطرهم كما تستدل عيونهم على الأشياء المنصوبة، ويكون اشتقاقه من قولهم: (ضربت الخباء) إذا نصبته وأثبتَّ طنبه.

ومنه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد: ١٧]، أي ينصب منارهما، ويوضِّح أعلامهما، ليعرف المكلَّفون الحقَّ بعلاماته، فيقصدوه، ويعرفوا الباطل فيجتنبوه (١).

---

(١) ـ وقد يكون معنى الآية: إحداث الصراع بين الحق والباطل بتقدير الله تعالى وأمره، ويرشِّح هذا المعنى ويقوِّيه ما جاء بعد ذلك من التفصيل، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ [الرعد: ١٧]، ومعلوم أن ارتفاع الحق وعلوه، وانحسار الباطل وقهره، لا يكون ذلك إلا بقَدَر الجهاد في سبيل الله تعالى، وتكون هذه الآية الكريمة قد أشارت على هذا المعنى إلى حكمة جليلة من حِكَم الجهاد في سبيل الله تعالى، ألا وهي أن ارتفاع الحق وعلو كلمته، لا يكون إلا بجهاد أنصاره، وإرهابهم أعداء الله بقوته، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١]. وعلى هذا المعنى الذي أراه في الآية الكريمة لا يكون في هذه الآية دليل على أن معنى ضرب

٣ـ وقد يكون ضرب المثل بمعنى صنعه وإنشائه من ضرب اللَّبْن وضرب الخاتم [1].

٤ـ وجاء من معاني الضرب: قال في الصحاح: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ [النحل: ٧٦] أي: وصف وبين.

و﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١] مَنَعناهُم أنْ يسمعوا..

ضرب على يد فلان: إذا حَجَر عليه..

(فضرب الدهر ضَرَبَانه) كقولهم: فقضى، من القضاء [2].

وتقول: (صار الشيء ضربة لازب) أي: لازماً ثابتاً [3].

ـ وما نقلته من معنى هذه المادة متصل متقارب، إذ لا تعارض بينها، وهي تتصل بمعنى ضرب الأمثال [4]، وأرجّح أن يكون أظهر الأقوال في ضرب المثل أنه إحكام صنعته وإنشائه ليكون الممثَّل مماثلاً للممثَّل به، ومناسباً له وملائماً..

المثل: نصبه وإعلانه وإشهاره، على أن هذا المعنى نفسه للآية لا يتأتى إلا على حذفٍ مقدر، أي يضرب الله الحق مثلَ الحق والباطل.. وعلى القول الآخر الذي ذكرته لا نحتاج إلى هذا التقدير، ويكون المعنى مأخوذاً من المضاربة الذي هو المدافعة بالأيدي المسبَّب عن اختلاف الكلمة.

[1] - انظر: مقدمة (الأمثال في القرآن الكريم) للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، بتحقيق الأستاذ سعيد محمد نمر الخطيب.

[2] - انظر: (الصحاح) للجوهري ١: ١٦٨ و ٢١٩.

[3] - انظر: (القاموس المحيط) للفيروزآبادي ١: ١٣٢.

[4] - يدلك على ذلك قول الإمام الراغب في المفردات: (الضرب إيقاع شيء على شيء، ولتصور اختلاف الضرب خولف بين تفاسيرها.. وضرب الأمثال هو من ضرب الدراهم، وهو ذكر شيء أثره يظهر في غيره...) انظر: المادة، ص ٢٩٤.

المطلب الرابع: الفرق بين الحكمة والمثل

ولا بدَّ لنا لبيان الفرق بين الحكمة والمثل أن نرجع إلى مادة (الحكمة)، كما عرفنا مادة (المثل).

قال الإمام الحسن اليوسي: (الحكمة هي فعلة من الحُكم أو الأحكام.

أما الحكم فيرد بمعنيين: أحدهما: القضاء؛ يقال: حكم الشارع أو القاضي بكذا حُكْماً ـ بضم فسكون ـ الثاني العلم، يقال: حكم حكماً وحكمة.

وأما الإحكام فيكون أيضاً بمعنيين: أحدهما الإتقان؛ يقال: أحكم فلان كذا إحكاماً إذا أتقنه. الثاني المنع، يقال: أحكمت السفيه وحكمته أيضاً أي منعته وأخذت على يده...

وأحكمت الفرس وحكمته جعلت له حَكَمة. والحَكَمة ـ بفتحتين ـ ما أحاط بحنكي الفرس وعلى أنفه من اللجام...

إذا عرفت هذا فقيل: الحكمة هي العمل، وقيل: الإتقان، وقيل: العدل، والحلم... وقيل: كل ما منع من الجهل وزجر عن القبيح. قال عياض في قوله صلى الله عليه وسلم: (الحكمة يمانية)، الحكمة عند العرب كل ما منع من الجهل).

وقال الراغب: الحِكْمَةُ: إصابة الحق بالقول والفعل، فالحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات. وهذا هو الذي وصف به لقمان في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]، ونبَّه على جملتها بما وصفه بها.

والعبارات عنها كثيرة، ولا حاجة إلى التطويل بها، فإن مرجعها شيء واحد، وإنما سبب الاختلاف: كثرة اللوازم والخواص، فعبَّر كلٌّ عنها بما حضره من خواصِّها..

والأقرب من معانيها: المنع، ولا يبعد أن يكون الإحكام الذي هو الإتقان من المنع أيضاً، كأن المحكَم قد منع من الاخلال والفساد.

وأبعد عن مظانّ العيب والاعتراض، وتقدم أن الحكم الذي هو القضاء هو أيضاً منع للظالم، فصارت المادة كلها من المنع، والله أعلم.

فإذا تتبعنا المعاني المقولة في الحكمة تلخص من ذلك أنها تتعلق بالقلوب وبالجوارح من الأيدي والألسنة، أما في القلوب فعلى معنى الإصابة في اعتقاداتها وتصورها للأشياء، وفي أخلاقها من الحلم والعفو، والعفة والعدل، ونحو ذلك، وأما في الأيدي فعلى معنى الإصابة في أفعالها، وإتقان صنائعها، وأما في الألسنة فعلى معنى الإصابة في التعبير عن المعاني، بإصابة المحِزّ، وتطبيق المفصل.

ولا بد في هذا كله عند إطلاق لفظ (الحكمة) ولفظ (الحكيم) عند أهل كل من عرف من اعتبار دقة في ذلك ولطافة، ونوع غرابة، وعظم فائدة، باعتبار أهل ذلك العرف، حتى يكون المعنى بالإصابة المذكورة إصابة خاصة لا مطلق الإصابة.

وهذا من مراد قوله صلى الله عليه وسلم: (الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها التقطها)، وفي رواية: (فهو أحق بها) [1].

فالحكمة هي التي أحكمت مبانيها بالعلم والعقل، وتدل على معنى فيه دقّة.

وقد قيل: أنزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء في الجسد: قلوب اليونان، وألسنة العرب، وأيدي أهل الصين، وما ذلك إلا لاختصاص اليونان بمزية التبحُّر في علم الأشياء، ومعرفة القوانين، وإتقان البراهين، واختصاص أهل الصين بمزية عمل الصنائع العجيبة، وإتقان الأعمال الغريبة، واختصاص العرب بمزية إبانة المعاني العجيبة، والأمثال والمواعظ المفيدة، ومن ثَم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من الشعر

---

(1) . روي مرسلاً ومرفوعاً بأسانيد لا تخلو من ضعف. انظر: كشف الخفاء ١: ٤٣٥ـ ٤٣٦.

لحكمة) ( )، ودخل العجَّاج على عبد الملك بن مروان فقال: (يا عجاج، بلغني أنك لا تقدر على الهجاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه خراب الأبنية، قال: فما يمنعك من ذلك؟ قال: إن لنا عزاً يمنعنا من أن نُظلَم، وإن لنا حلماً يمنعنا من أن نَظلِم، فعلام الهجاء؟! فقال عبد الملك: لكلماتك أشعر من شعرك، فأنى لك عِزٌّ يمنعك من أن تُظلَم؟ قال: الأدب المستطرف، والطبع التالد، قال: يا عجاج، لقد أصبحت حكيماً، قال: وما يمنعني وأنا نجيُّ أمير المؤمنين).

ويتضح مما سبق أن الفرق بين المثل والحكمة يظهر في ثلاثة أمور:

أحدها: أنَّ الحكمة عامَّة في الأقوال والأفعال، والمثل خاصٌّ بالأقوال.

ثانيها: أنَّ المثل وقع فيه التشبيه، والحكمة قد يقع فيها التشبيه، وقد لا يقع، فإذا وقع فيها التشبيه اجتمعت مع المثل، وإلا فاختلفت عنه.

ثالثها: أنَّ المقصود من المثل الاحتجاج، ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ.

ولا يبعد أن يقال بعد ذلك: إن المثل هو من الحكمة، فهي تعمُّه، وتعمُّ غيره.

ومن ها قرَّر الإمام أبو هلال العسكري، صاحب كتاب (جمهرة الأمثال) أن كل حكمة سائرة تسمى: مثلاً..

فالكلمة إذا شاعت وانتشرت، وكثر دورانها على الألسنة تكون: مثلاً، أما إن كانت الكلمة صائبة، وصادرة عن تجربة، ولم تدر على الألسنة فتسمى: حكمة.

ويلخص القول الإمام الحسن اليوسي في الفرق بين الحكمة والمثل، فيقول: (والحق أن من الأمثال ما لا يشتبه بالحكمة في وردٍ ولا صَدر، نحو: (الصيفَ ضيَّعت اللبن)، ومن الحكم ما لا يشتبه بالمثل، ككثير من الحكم الإنشائية، ويبقى وراء ذلك وسط يتجادل فيه الفريقان، فمنهم قد يعدُّ مثلاً تارة، وحكمة تارة، ولا فرق فيما يظهر إلَّا

( ) . رواه البخاري عن أبي بن كعب، والترمذي عن ابن عباس.

بالحيثية، وهي أنها إن سيقت ملاحظاً فيها التنبيه أو الوعظ، أو إثبات قانون أو فائدة ينتفع بها الناس في معاشهم أو معادهم فحكمة.

وهذا معروف بالاستقراء، وشاهدُه الذوق بعد معرفة أن مرجع الحكمة: الإصابة، ومرجع المثل: التشبيه، حتى إن من يضرب للناس أمثالاً غريبة ينتفعون بها يصحُّ أن يقال: إنه حكيم؛ لأنه مصيب في ذلك المثل الذي ضربه، وكذلك من صور صورة المسدس مثلاً عدَّ منه ذلك تمثيلاً من حيث التشبيه، وحكمةً من حيث الإصابة والإتقان، ولا تنافي بين الغرضين. ومن وسع نطاق هذا الاعتبار، أمكنه في كل مثل وحكمة هذا المقدار) ([1]).

المطلب الخامس: أهمية الأمثال وفائدتها في القرآن الكريم

المثل فنٌّ من القول بديع في الجاهلية والإسلام، وضرب من ضروب الفصاحة وجوامع الكلم، به تُستمال القلوب، وتُشنَّفُ الأسماع، وتردُّ الأهواء، وهو مظهر بلاغة الخطيب في خطبه، وتمكُّن الشاعر في شعره، ولقد أكثر أئمة اللغة والبيان من الحديث عن أهمية الأمثال وفائدتها في الكلام.

ـ قال الشيخ أبو هلال العسكري: (وَلما عرفت العَرَب أَن الأَمْثَال تتصرَّف فِي أَكثر وُجُوه الكَلَام، وَتدخل فِي جلِّ أساليب القَوْل، أخرجوها في أقواها من الأَلَفاظ ليخفّ استعمالها ويسهل تداولها، فَهِي من أجلِّ الكَلَامِ وأنبله، وأشرفه وأفضله، لقلَّة ألفاظها وَكَثْرَة مَعَانِيهَا، ويسير مؤونتها على المُتَكَلّم.

---

[1] ( ) ـ زهر الأكم في الأمثال والحكم ١: ٢٥ـ ٣٠.

ومعذرة من القارئ على إطالة النفس في هذه النقطة، فما نقلته مثل من الحكمة العزيزة، يحرص عليه أولو الحِجَا، وتشدُّ عليه أيدي أولي النُّهَى، ولقد دأب علماؤنا وسلفنا أن تشتطَّ بهم الأقلام، وراء درر الكلام، وغرر الفوائد الحسان.. وما أحسنَ الأنهار إذا زيّنت شطآنها الأزهار والأشجار!!

وَمن عجائبها أَنَّهَا مَعَ إيجازها تعمل عمل الإطناب، وَلها روعة إِذا برزت فِي أَثْنَاء الخطاب) [1].

ـ وقال الإمام أبو عُبَيد: (الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاوَلَتْ من حاجاتها في المنطق بكنايةٍ غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجازُ اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وقد ضربها النبي صلى الله عليه وسلم هو ومن بعده من السلف) [2].

ـ ويجلِّي الإمام الزمخشري بعض الحكمة من إيراد الأمثال في القرآن الكريم، فيقول: (إن الأمثال لها شأن كبير في إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المُتخيَّل في صورة المُتحقَّق، والمُتوهَّم في معرض المُتيقَّن، والغالب كأنه شاهد).

(وفيها تبكيت للخصم الألدّ، وقمع لسَورةِ الجامح الأبيِّ) [3].

وقال أيضاً: (التمثيل إنما يصار إليه لما فيه كشف المعنى، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهَّم من الشاهد).

ـ وقال الإمام الزركشي: (الغرض من التمثيل: تشبيه الخفي بالجلي، والشاهد بالغائب، فالمرغَّب في الإيمان مثلاً إذا مثِّل له بالنور تأكَّد في قلبه المقصود، والمزهَّد في الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد قبحه في نفسه) [4].

---

[1] - جمهرة الأمثال ١: ٤ـ ٥.

[2] - المزهر للإمام السيوطي ١: ٤٨٤.

[3] - انظر: مقدمة محقق كتاب (الأمثال في الحديث الشريف) لأبي الشيخ الأصبهاني، ص ١٢.

[4] - المرجع السابق، نفس الصفحة.

ـ وقال إبراهيم النظام: (يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسْن التشبيه، وجَوْدة الكناية، فهو نهاية البلاغة) [1].

ـ وقال ابن المقفع: (إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق، وآنَقَ للسمع، وأَوْسَعَ لشُعُوب الحديث).

ـ وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (وقد ضرَب الله ورسولُه الأمثال لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مَثَّل به، ليكون أقربَ إلى تَعقُّله وفهمه وضبطه واستحضاره، فإنَّ النفسَ تأنس بالنظائر والأشباه، وتنفِرُ من الغُرْبة والوَحْدَة وعدم النظير... فالأمثال شواهدُ المعنى المراد، وهي خاصية العقل، ولبُّه وثمرته) [2].

ـ وقد عدَّ الإمام الشافعي علم الأمثال القرآنية مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال: ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته، المبينة لاجتناب معصيته).

ـ وقال الإمام الزركشي في البرهان: (ومن حكمته تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة) [3].

ـ وقال بعض العلماء: (ضرب الأمثال في القرآن تستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص؛ لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثمَّ كان الغرض من المثل: تشبيه الخفيِّ بالجليِّ، والغائب

---

[1] ( ) ـ انظر مقدمة (مجمع الأمثال) للميداني ١: ٦.

[2] ( ) ـ انظر كتاب: (إعلام الموقعين عن رب العالمين)، للإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ١: ٢٩١ باختصار.

[3] ( ) ـ انظر: الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي ٢: ١٣١، والبرهان ١: ٤٨٧.

بالمشاهد، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيانٍ بتفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله، قال تعالى: ﴿وضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾، فامتن علينا بذلك لما تضمنه من الفوائد) (١).

هذه نبذ من القول متناثرة، سقتها لبيان أهمية الأمثال، وفائدتها في الكلام، وهي تتحدث أكثر ما تتحدث عن فائدة الأمثال من الوجهة اللغوية البلاغية، وبعضها يربط بين مزايا الأمثال البلاغية، وتأثيراتها.. ولعلَّ أجمع ما قيل في التأثير النفسي للأمثال، وأمتع وأبلغ ما عدد من مزاياها وأرفع، قول شيخ البلاغة العربية وإمامها الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه: (أسرار البلاغة): (واعلم أنّ مما اتفق العقلاء عليه، أن «التمثيل» إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النّفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً، وقسر الطّباع على أن تعطيها محبّة وشغفاً.

فإن كان مدحاً، كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهزّ للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بعزّ المواهب والمنائح، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر.

وإن كان ذمّاً، كان مسُّه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشده، وحدُّه أحدّ.

وإن كان حجاباً، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر.

وإن كان افتخاراً، كان شأوه أمدّ، وشرفه أجدّ، ولسانه ألدّ.

وإن كان اعتذاراً، كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسّخائم أسلّ، ولغرب الغضب أفلّ، وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث.

---

(١) . انظر: الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي ٢: ١٣١.

وإن كان وعظاً، كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزّجر، وأجدر بأن يجلّي الغياية، ويبصّر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل.

وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه، وتتبّعت أبوابه وشعوبه) [1].

وخلاصة القول أن أهمية ضرب الأمثال وفائدتها تتجلى بنظرة جامعة في الجوانب التالية:

ـ أولاً: الجانب اللغوي أو اللفظي، وفيه تتجلى بلاغة المتكلم بإيجاز اللفظ، وحسن التشبيه والتمثيل، وجودة الكفاية، وفيه وضوح المنطق، وتمكن المتكلم من شعب الحديث.

ـ ثانياً: الجانب المعنوي، وتبرز فيه قدرة المتكلم على تقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثَّل به، ليكون أقرب إلى تعقُّله وفهمه، وضبطه واستحضاره، وفي ذلك يقول الإمام الزمخشري: (التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني وإدناء المتوهم من الشاهد). ويقول أيضاً: (إن الأمثال لها شأن كبير في إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق..).

والتمثيل يعين المتكلم أو المربي على استجماع معاني الكلام، والإلمام بأطرافه وأبعادهن فله دوره في التربية والعطاء، كما له دلالته على التمكن من (المادة) وحسن العرض والأداء.

ثالثاً: الجانب النفسي أو التربوي، ونعني به ما يتركه المثل السائر أو التشبيه التمثيلي في نفس السامع من أثر نفسي أو تربوي عميق، فإن كان السامع بعيداً عن الحق اقترب، وأن كان غافلاً معرضاً تنبّه واتّعظ، وإن كان جاحداً مكابراً قمع وانزجر، (ولا

---

[1] ( ) ـ (أسرار البلاغة)، للإمام عبد القاهر الجرجاني، نقلاً عن الأمثال في القرآن، للدكتور محمد بن الشريف ص ١٣.

شك أن النفس البشرية تأني بالنظائر والأشباه، وتتأثر باقتران بعضها ببعض، وتنفر من الغربة والوحدة، وعدم النظير)، كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى.

وإن المتكلم عندما يضرب الأمثال للسامعين إنما ينتقل بهم من عالم التجريد والمفاهيم، إلى عالم الحواسِّ المدركة، والواقع الملموس، فيتفاعلون مع حديثه، ويتأثَّرون بكلامه، ويكون له عليهم من سلطان التأثير عوامل عديدة، من الحواسِّ، إلى التخيُّل والذاكرة، والتنبُّه واليقظة، إلى التفكير باقتران المثل بالممثَّل له، وترابطهما، وهذا ما يضفي على كلامه قدرة في التأثير قويَّة، على حسب نجاحه في التمثيل، وقدرته على براعة التصوير.

وما أشبهَ تأثير (التمثيل اللفظي) و(التصوير البلاغي) بـ(التمثيل المسرحي) و(التصوير المرئي).. بل إننا لنقول بكل تأكيد: إن ذلك قد ولَّد هذا، وإن نجاح الثاني ما هو إلا أثر عن نجاح الأول.. وما الترابط بينهما إلا كترابط السبب بالمسبب، والمقدمة بالنتيجة، واللفظ بالمعنى، والصورة بالحقيقة.. (فالأمثال تريك المتخيَّل في صورة المتحقَّق، والمتوهَّم في معرض المتيقَّن، والغائب كأنه مشاهد) كما يقول الإمام الزمخشري.

و(فيها تبكيت للخصم الألدِّ، وقمع لسَورة الجامح الأبي)، كما يقول أيضاً.

ولا شك أن الجانبين الأول والثاني، إنما هما كالمقدمة للجانب الثالث، وإنما يقاس نجاح المتكلم بما يترك كلامه من أثر في نفوس السامعين، وكذلك المثل - وهو نوع من الكلام - إنما يقاس نجاحه وإصابته بما يتركه من أثر، وما يحققه من أهداف لإيراده..

ولكن نجاح الجانب الثالث يرتبط بنجاح الجانبين الأول والثاني وقوّتهما، فعلى قدر سلامة اللفظ، وقوة الأسلوب والتعبير، وإصابة المعنى، ودقة التصوير، يكون التأثير وتحقيق الأهداف للكلام وللتمثيل..

وموضوعنا في هذا البحث كله يتركز على الجانب الثالث، على الرغم مما بين الجوانب الثلاثة من وثيق الارتباط، وشدة التداخل والاتصال..

ـ ثمَّ إن مما يجلي لنا مكانة أمثال القرآن الكريم وأهميتها، أن نعلم أن أمثال القرآن الكريم قسم أساسي من أقسام موضوعات القرآن الكريم، كما أنها أسلوب من أساليب بيانه المعجز، فقد جاء في الحديث الشريف الذي يرويه الإمام البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال) [1].

ـ ونختم هذه النقطة بتحليل دقيق، وكشف نفيس عن أهمية الأمثال وفائدتها، للإمام الحسن اليوسي رحمه الله تعالى، يقول في (زهر الأكم):

(لا يخفى على ذي مَيْزٍ، ولا يشتبه على ذي لُبٍّ، ما جعل الله تعالى في المثل من الحكمة، وما أودع فيه من الفائدة، وناط به من الحاجة؛ فإن ضرب المثل يوضح المنبهم، ويفتح المنغلق، وبه يصوَّر المعنى في الذهن، ويكشف المعمَّي عند اللبس، وبه يقع الأمر في النفس حسن موقع، وتقبله فضل قبول، وتطمئن به اطمئناناً، وبه يقع إقناع الخصم، وقطع تشوّف المعترض.. وهذا كله معروف بالضرورة، شائع في الخاص والعام، ومتداول في العلوم كلها منقولها ومعقولها، وفي المحاورات والمخاطبات، حتى شاع من كلام عامة المتعلمين والمعلمين قولهم: (بأمثالها تعرف أو تتبيَّن الأشياء).

وسرُّ ذلك أنَّ المثل يصوِّر المعقول بصورة المحسوس، وقد يصور المعدوم بصورة الموجود، والغائب بصورة المشاهد الحاضر، فيستعين العقل على إدراك ذلك بالحواس، فيتقوى الإدراك، ويتضح المدرَك.

---

(1) . الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي ٢: ١٣١.

وتحقيق ذلك أن العقول وإن كانت تدرك المعلومات، لكنها غير مستقلة بنفسها غالباً في إدراك جميعها، ولا جلها، استقلالاً صرفاً، لا سيَّما القاصر. وذلك أن العقول إنما تستقل بإدراك أوائل الضروريات التي توجد في غرائزها ولا تدري لها سبباً غير اختراع الفاعل المختار، وما سوى ذلك فالعقول فيها إما مفتقرة إلى الحواس، كالمعلومات التجريبية التي موادها محسوسة بإحدى الحواس؛ وإما مستعينة بها ضرباً من الاستعانة على طريق التمثيل والتقرير ونحوه.

والعقل عادة إنّما يدرك بنفسه الضروريات، وما سوى ذلك إنما يدركه بواسطة تأديه، أو تأدِّي نظيره إليه من الحواس الظاهرة أو الباطنة.

ومع ذلك، فالمتأدى إليه إنّما هو أمر جزئي بالضرورة، فمتى حاول جنساً من ذلك لم يكن الجنس بنفسه من حيث إنّه جنس متأدياً بشيء منها، فاحتاج إلى أن يمثَّل بصورة من ذلك الجنس، فيدركها لأنها هي التي كانت تتأدى إليه ليقيس عليها غيرها، وبذلك يمكنه أن يدرك القاعدة والقانون، وهو الذي نعني بالجنس في هذا المحل حيث أدرك مادته إلَّا أن يكون له من لطف الإدراك وقوة الذكاء، ما يستحضر به تلك الصور، وينتزع منها مراده، من غير أن يُصَوَّر منها شيء مخصوص، فهذا يستغني عن التمثيل، وقليل ما هم. ومع ذلك فالنفس قد قلنا إنّها قوية الاستئناس بالمحسوسات لوضوحها وسبقها...

والاستئناس بالمألوف مركوز في جبلة النفوس... ثم إنّه كلما عرف الإنسان ضرباً من العلوم ومارسه ألفته نفسه، واستأنست به؛ فإذا ارتحل عنه إلى منزلة أخرى حنَّت النفس إلى الأولى المألوفة أيضاً، فاحتيج إلى أن يضرب لها مثل بشيء مما ألفته أو نظيره لتستأنس به، وتطمئن إليه، حتى لا يختص التمثيل بالمحسوسات الصرفة، وهكذا أبداً.

فقد تبين بهذه الكلمات الاحتياج إلى التمثيل، ووجه الاحتياج، وأنّه لا غنى عنه لعام ولا خاص، غير أن الاحتياج قد يكون ضرورياً، وذلك عند العجز عن الوصول

إلى المطلوب بدونه، وقد يكون تحسينياً، وذلك عند الاحتياج إلى الاستعانة به والاستئناس والاطمئنان. هذا الأصل، وقد يكون الاحتياج لأغراض أخرى.

هذا ما ألهمني الله تعالى في هذا المقام على سبيل الإجمال، وأما بسطه كل البسط فلا يسعه القول، وفيما ذكرناه كفاية، إذ ليس من الغرض الإكثار إذا فُهم المقصود وأُدرك المراد. فقد ظهر بهذا عظم فائدة التمثيل، وبذلك تبين فضله)[1].

وحقاً إنه لكلام نفيس، وفهم دقيق، وفتح ظاهر، في تحليل فائدة المثل، والكشف عن الحكمة من ضربه.

وبهذا نكون قد أوفينا الكلام على أهمية الأمثال وفائدتها.. ويصل القول بنا إلى المطلب الذي يليه، وهو

المطلب السادس: مواقف الناس من أمثال القرآن الكريم

ضرب الله تعالى الحكيم في القرآن ضروباً من الأمثال للخلق، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وفي آية أخرى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فعدَّها سبحانه منَّة على الناس، لما فيها من عظيم الفوائد.

وقال تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، يشير بذلك سبحانه إلى أنه لا التباس ولا إشكال بعد ضرب المثل، ومع ذلك لم يعتبروا[2].

---

(1) - زهر الأكم في الأمثال والحكم ١: ٣١ـ ٣٤ باختصار وتصرف يسير.

(2) - زهر الأكم في الأمثال والحكم ١: ٣٤ـ ٣٥ بتصرف.

وقد ذكر الله تعالى مواقف الناس من أمثال القرآن الكريم، فبيَّن سبحانه أن الناس ينقسمون في ذلك إلى فريقين:

ـ الفريق الأول: وهم المؤمنون الذين تزيدهم آيات الله تعالى نوراً وهداية، ويتلقَّون أمثال القرآن الكريم بالإيمان والتسليم، والفهم والتدبر، ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ـ والفريق الثاني: وهم الكافرون والمنافقون، والذين في قلوبهم مرض، فقد أنكروا أن يضرب الله سبحانه مثلاً بصغير المخلوقات، وشكَّكوا في حكمة الله أن يضرب بها مثلاً، بل شكَّكوا أن يكون ذلك من وحي الله تعالى، فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ـ قال الإمام الزمخشري: (والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا: أجمع من ذرّة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد، وأصرد من جرادة، وأضعف من فراشة، وآكل من السوس. وقالوا في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض. وكلفتني مخ البعوض. ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة، كالزوان والنخالة وحبة الخردل، والحصاة، والأرضة، والدود، والزنابير..

والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما لا تغنى استقامته وصحته على من به أدنى مسكة، ولكن ديدن المحجوج المبهوت الذي لا يبقى له متمسك بدليل ولا متشبث

بأمارة ولا إقناع، أن يرمى لفرط الحيرة والعجز عن إعمال الحيلة بدفع الواضح وإنكار المستقيم والتعويل على المكابرة والمغالطة إذا لم يجد سوى ذلك معوّلاً) ([1]).

ـ وقال الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى في حديثه عن هذه الآية: (فالله رب الصغير والكبير، وخالق البعوضة والفيل، والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل.

إنها معجزة الحياة، معجزة السر المغلق الذي لا يعلمه إلا الله.. على أن العبرة في المثل ليست في الحجم والشكل، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير. وليس في ضرب الأمثال ما يعاب وما من شأنه الاستحياء من ذكره.

والله جلت حكمته يريد بها اختبار القلوب، وامتحان النفوس: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.. ذلك أن إيمانهم بالله يجعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه بما يليق بجلاله وبما يعرفون من حكمته. وقد وهبهم الإيمان نوراً في قلوبهم، وحساسية في أرواحهم، وتفتحاً في مداركهم، واتصالاً بالحكمة الإلهية في كل أمر وفي كل قول يجيئهم من عند الله..

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ: ماذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً﴾؟

وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته، المقطوع الصلة بسنة الله وتدبيره. ثم هو سؤال من لا يرجو لله وقاراً، ولا يتأدب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرفات الرب. يقولونها في جهل وقصور في صيغة الاعتراض والاستنكار، أو في صورة التشكيك في صدور مثل هذا القول عن الله! هنا يجيئهم الجواب في صورة التهديد والتحذير بما وراء المثل من تقدير وتدبير: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً، وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾..

([1]) ـ الكشاف للزمخشري ١: ١١ـ ١٢.

والله سبحانه يطلق الابتلاءات والامتحانات تمضي في طريقها، ويتلقاها عباده، كل وفق طبيعته واستعداده، وكل حسب طريقه ومنهجه الذي اتخذه لنفسه. والابتلاء واحد.. ولكن آثاره في النفوس تختلف بحسب اختلاف المنهج والطريق.. الشدة تسلط على شتى النفوس، فأما المؤمن الواثق بالله وحكمته ورحمته فتزيده الشدة التجاء إلى الله وتضرعاً وخشية. وأما الفاسق أو المنافق فتزلزله وتزيده من الله بعداً، وتخرجه من الصف إخراجاً. والرخاء يسلط على شتى النفوس، فأما المؤمن التقي فيزيد الرخاء يقظة وحساسية وشكراً. وأما الفاسق أو المنافق فتبطره النعمة ويتلفه الرخاء ويضله الابتلاء.. وهكذا المثل الذي يضربه الله للناس.. ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً﴾.. ممن لا يحسنون استقبال ما يجيئهم من الله، ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ ممن يدركون حكمة الله. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.. الذين فسقت قلوبهم من قبل وخرجت عن الهدى والحق، فجزاؤهم زيادتهم مما هم فيه)[1]!

ـ وذكر الله تعالى ملائكة العذاب، وذكر موقف الكافرين من عدتهم، فقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

فذكر سبحانه اعتراض الذين في قلوبهم مرض والكافرين بقولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ أي: أيُّ شيء أراد الله تعالى، أو ما الذي أراده الله تعالى بهذا العدد، المستغرب استغراب المثل[2].

---

[1] . في ظلال القرآن ١: ٥٠ـ ٥١. باختصار يسير.

[2] . روح المعاني للإمام الآلوسي ٢٩: ١٦٠.

وقال الإمام الرازي: (لما كان هذا العدد عدداً عجيباً ظنَّ القوم أنه ربما لم يكن مراد الله منه ما أشعر به ظاهره، بل جعله مثلاً لشيء آخر وتنبيهاً على مقصود آخر، لا جرم سمَّوه مثلاً) [1].

ـ ويقول الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾: (وهكذا تترك الحقيقة الواحدة أثرين مختلفين في القلوب المختلفة.. فبينما الذين أوتوا الكتاب يستيقنون، والذين آمنوا يزيدون إيمانا، إذا بالذين كفروا وضعاف القلوب المنافقون في حيرة يتساءلون: ﴿ماذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً﴾؟ فهم لا يدركون حكمة هذا الأمر الغريب. ولا يسلمون بحكمة الله المطلقة في تقدير كل خلق.

ولا يطمئنون إلى صدق الخبر والخير الكامن في إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة) [2].

المطلب السابع: النهي عن ضرب الأمثال لله

جاء في التنزيل الحكيم قوله تعالى: ﴿فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

فما المراد بالنهي عن ضرب الأمثال لله؟ وهل للمؤمن أن يضرب مثلاً يقارن به بين أوضاع الدنيا والآخرة؟ ويبيّن الفرق بين صفات الله تعالى، صفات الكمال والجلال، وما عنده سبحانه، وبين صفات العبيد وضعفهم ونقصهم، وفساد أحوالهم واضطراب تصرفاتهم؟

---

(1) ـ مفاتيح الغيب للإمام الرازي ٣٠: ٢٠٧. ولكن هذا الكلام إنما يتجه لو كان صادراً عن غير الكافرين، وإنما يتجه أن يكون الكافرون قد قالوه سخريةً واستهزاءً وتهكماً بالعذاب، وملائكة العذاب، ويقوي ذلك سبب النزول.

(2) ـ في ظلال القرآن ٦: ٣٧٥٩.

يقول الإمام الآلوسي في بيان معنى هذه الآية الكريمة: (والمراد من الضرب الجعل، فكأنه قيل: فلا تجعلوا لله تعالى الأمثال والأكفاء، فالآية كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ [البقرة: ٢٢]، وهذا ما يقتضيه ظاهر كلام ابن عباس رضي الله عنهما، فقد أخرج ابن جرير. وابن المنذر. وابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية: يقول سبحانه: لا تجعلوا معي إلهاً غيري فإنه لا إله غيري.

والمراد من ضرب المثل لله سبحانه الإشراك والتشبيه به جلَّ وعلا، من باب الاستعارة التمثيلية، ففي الكشف أن الله تعالى جعل المشرك به الذي يشبِّهه تعالى بخلقه بمنزلة ضارب المثل، فإنَّ المشبِّه المخذول يشبِّه صفة بصفة وذاتاً بذات، كما أن ضارب المثل كذلك، فكأنه قيل: ولا تشركوا بالله سبحانه، وعدل عنه إلى المنزَّل دلالة على التعميم في النهي عن التشبيه وصفاً وذاتاً، وفي لفظ (الأَمْثالَ) لمن لا مثال له أصلاً نعي عظيم عليهم بسوء فعلهم، وفيه إدماج أن الأسماء توقيفية، وهذا هو الظاهر لدلالة الفاء، وهي الفاء التي جاءت أول الآية، وهي دالة على ترتيب النهي على ما عدد من النعم الفائضة عليهم منه تعالى، وكون آلهتهم بمعزل من أن يملكوا لهم رزقاً، وهذا ما ذكرته الآية السابقة.

وهذا الوجه هو الذي اختاره الزمخشري، وكلام الحبر رضي الله تعالى عنه لا يأباه، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ تعليل للنهي، أي إنه تعالى يعلم كنه ما تفعلون وعظمه وهو سبحانه معاقبكم عليه أعظم العقاب وأنتم لا تعلمون كنهه وكنه عقابه، فلذا صدر منكم وتجاسرتم عليه.

وجوّز أن يكون المراد النهي عن قياس الله تعالى على غيره بجعل ضرب المثل استعارة للقياس، فإن القياس إلحاق شيء بشيء، وهو عند التحقيق تشبيه مركب بمركب، والفرق بينه وبين الوجه السابق قليل، وأمر التعليل على حاله.

وجَوَّز الزمخشري وغيره أن يكون المراد النهي عن ضرب الأمثال لله سبحانه حقيقة، والمعنى فلا تضربوا لله تعالى الأمثال التي يضربها بعضكم لبعض، إن الله تعالى يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون.

وكأنه قيل: فلا تمثلوا لله تعالى الأمثال، فإن ضرب المثل إنما يستعمل من العالِم لغير العالِم، ليبين له ما خفي عنه، والله تعالى هو العالِم وأنتم لا تعلمون، فتمثيل غير العالِم للعالِم عكس للحقيقة) [1].

فضرب الأمثال من باب التعليم، والتعليم يكون من أعلى إلى أدنى، ولذا فقد منَّ الله تعالى على عباده بذلك، ونهاهم أن يضربوا لله الأمثال، إذ إنها ستكون حينئذٍ جهلاً بقدره سبحانه، وتطاولاً على ذاته وأسمائه وصفاته، ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]. فالله هو المتصف بالعلم الشامل الدقيق المحيط، وهو المعلم لعباده بضرب الأمثال وغير ذلك، فأنَّى للمخلوق الظلوم الجهول أن يضرب لله تعالى الأمثال؟!

وفي هذا المعنى يقول الإمام محمد بن علي الترمذي: (إن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليه الأشياء، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال، إذ قد خفيت عليهم الأشياء، فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم لا من عند نفسه، ليدركوا ما غاب عنهم، فأما من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال) [2]..

لأنه سبحانه عالم الغيب والشهادة، والسر وأخفى، يستوي عنده الغيب والشهود، والجلي والخفي، وهو الظاهر والباطن.. إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون.

هذه إجابة السؤال الأول..

---

[1] ( ) . روح المعاني ١٤: ١٩٤.

[2] ( ) . الأمثال في القرآن الكريم للدكتور محمود بن الشريف ص ١٤٨.

أما إجابة السؤال الثاني، وهو هل تشمل الآية الكريمة النهي عن ضرب الأمثال المتعلقة بالله سبحانه، لتقريب أسمائه وصفاته الحسنى للناس؟ وليبين الفارق البعيد بين صفات الله تعالى، وهي صفات الكمال والجلال، وبين صفات العباد، وهي صفات الضعف والنقص والحاجة والافتقار؟!

فمما لا شك فيه أن الله تعالى ضرب أمثالاً لنا من هذا القبيل، فيها تقريب لأسمائه وصفاته، وما يليق به من الكمال لعباده، يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥ـ ٧٦].

وهاتان الآيتان بعد قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن هاتين الآيتين: ذكر الله تعالى مثلين: فالمثل الأول ضربه الله سبحانه لنفسه، وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً، ليلاً ونهاراً، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف تجعلونها شركاء لي وتعبدونها من دوني مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين؟

وأما المثل الثاني فهو الصنم الذي يعبد من دونه، بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، ومع هذا لا يقدر على شيء ألبتة، أينما أرسلته لا يأتيك بخير ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد) [1].

---

(1) . الأمثال لابن القيم ص ٢٠٤.

فإذا كان الله تعالى قد ضرب مثلاً لعباده عن ذاته جلَّ وعلا، ليقيم الحجة على وحدانيته في ذاته وأسمائه وصفاته، ويدحض أوهام المشركين وشبهاتهم، ويجلي مدى كفرهم وطغيانهم، فأي مانع أن يضرب المؤمن للناس أمثالاً من هذا القبيل؟! أمثالاً عن الحق جل وعلا، تقرب حقائق أسماء الله تعالى وصفاته، وتقيم الحجة، وتقطع الشبهات، وتدحر الباطل.

ثم إن المؤمن ليعتقد موقناً بذلك قلبه أن لله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ، وَلِلهِ الْمَثَلُ الأَعْلى وهو الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ـ وقد فسَّر الإمام الآلوسي الْمَثَلُ الأَعْلَى بقوله: (الوصف العجيب الشأن، كالقدرة العامة، والحكمة التامة، وسائر صفات الكمال) [1]، وهي أيضاً (الصفة العجيبة الشأن التي هي مثل في العلوّ مطلقاً، وهو الوجوب الذاتي، والغنى المطلق، والجود الواسع، والنزاهة عن صفات المخلوقين، ويدخل فيه علوه تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً) [2].

وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة (أن المثل الأعلى: شهادة أن لا إله إلا الله)، وهو رواية عن ابن عباس.

وأخرج عنه البيهقي في الأسماء والصفات وغيره هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقال أيضاً الإمام الآلوسي في توضيح قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾:

---

[1] روح المعاني ٢١: ٣٧.

[2] روح المعاني ١٤: ١٧٠.

(الذي ليس لغيره ما يدانيه، فضلاً عما يساويه، فكأنه قيل هذا لتفهيم العقول القاصرة، إذ صفاته تعالى عجيبة، وقدرته جلّ شأنه عامة، وحكمته تامة، فكل شيء بدءاً وإعادة، وإيجاداً وإعداماً، على حد سواء، ولا مثل له تعالى ولا ندّ).

وقال الزجاج: (المثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد ضربه الله تعالى مثلاً فيما يسهل ويصعب عندكم، وينقاس على أصولكم، فاللام في المثل للعهد، وهو محمول على ظاهره، غير مستعار للوصف العجيب الشأن.

وقوله تعالى: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي أنه تعالى قد وصف بذلك وعرف به فيهما على ألسنة الخلائق، وألسنة الدلائل.. والمراد أن دلالة خلقهما على عظيم القدرة أتمُّ من دلالة الإنشاء، فهو أدلُّ على جواز الإعادة، ولهذا جعل أعلى من الإنشاء، فتأمل) ([1]).

ثم ذكر سبحانه عقب الآية في سورة الروم مثلاً يبين به بطلان الشرك، وفساد عبادة غير الله سبحانه، فقال جل وعلا: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

فكأنه يشير سبحانه بذكر هذا المثل في هذه الآية الكريمة إلى جواز ضرب المثل لبيان وحدانية الله تعالى، وكمال أسمائه الحسنى وصفاته، وفساد عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع، وليس لها من الصفات إلا العجز والضعف والضعة، وذلك بعدما قال سبحانه: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

([1]) . روح المعاني ٢١: ٣٧ بتصرف واختصار يسير.

فتلك أمثال تضرب لتعليم الناس، وإقامة الحجة عليهم، وتوضيح الحقائق وجلائها في أذهانهم وتصوراتهم، فهي أمثال عن الله للناس.. وليست أمثالاً لله.. ثم لله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

من هنا يتبين لك ـ أخي القارئ ـ أن تحرّج بعض الناس عن ضرب الأمثال عن الله تعالى بهذا المعنى تحرُّجٌ لا داعي له، ما دامت تلك الأمثال مستقاة من معين الحق، مستهدية بمشكاة التنزيل.. كيف؟ وقد ضرب الله تعالى الأمثال لعباده، ليقرب لهم حقائق الغيب، ويعرِّفهم بعظمة ذاته، وجليل أسمائه وصفاته، كما يتبين لك أن المنهي عنه: إنما هو ضرب الأمثال لله سبحانه ـ لا عنه سبحانه ـ بالمعنى الذي سبق بيانه، هذا والله تعالى أعلم.

المطلب الثامن: من خصائص (الأمثال القرآنية) وإعجازها

لا يسعنا في هذا المطلب الفرعي من هذا المبحث التمهيدي أن نسهب في الحديث عن خصائص الأمثال القرآنية، وحقائق إعجازها كلها، فذاك باب يصلح أن يكون كتاباً، ثم لا يمكن فيه لأحد من البشر أن يحيط بجوانبه، ويأتي على شوارده.. إذ إن كتاب الحق سبحانه معين لا ينضب، ونور لا تحصره أوهام البشر، وأنظارهم المحدودة، ولكننا نريد أن نلمح إلماحة عابرة، ونتحدث بإشارات موجزة تكون عنواناً لما وراءها، ودليلاً على ما بعدها.. لا نملك فيها استقصاء الحديث ولا ندَّعيه، ولا استيفاء جوانبه، ولا الإحاطة بمعانيه.. ولكننا نقبس قبساً من النور، ويبقى الباب مفتوحاً لزيادة كل مستزيد.. ولكل مجتهد نصيب.

على أن خصائص الأمثال القرآنية، وحقائق إعجازها، إن هي إلا جزء من خصائص القرآن كله، ومظاهر إعجازه، فاقبس من هناك ما تراه هنا.. وانظر هاهنا لترى أنك هناك..

ـ فمن خصائص الأمثال القرآنية، ومظاهر إعجازها:

أ ـ الجمع بين الحُكْم والحكمة:

فالأمثال القرآنية فيها الحِكَم النورانية، والأحكام التشريعية، بل كثيراً ما تكون قاعدة من قواعد التشريع، التي تعدُّ أصلاً عاماً من أصول هذه الشريعة الغراء، ومبادئها الخالدة، خذ في ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وغير ذلك في كتاب الله تعالى كثير، ويدرك ذلك بأدنى نظر وتأمل.. أما تفصيل ما تجمعه هذه الأمثال وغيرها من الحكم والأحكام فهو ما تعجز عنه أقلام البلغاء، وألسنة الفصحاء؛ لأنها تمد كل طالب بعطاء، ولن تنفد كلمات ربي..

ب ـ الجمع بين معانٍ متفاوتة، كلها صحيحة مقبولة:

وهذا ما لا يتأتَّى لقول من قول البشر.. الذين يعجزهم المعنى الواحد أن يعبِّروا عنه ويُلمُّوا بأطرافه..

خذ لذلك نموذجاً نقف عنده، نستجلي معانيه، يقول تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

فقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ هو المثل الذي توسط الآية الكريمة، جمع بين الحِكَم والأحكام.. وبين المعاني الكثير التي لا يأباها السياق، يقول الإمام الرازي: (اختلف المفسرون فيه، فمنهم من قال: إنه راجع إلى نفس النفقة، ومنهم من قال: إنه راجع إلى غيرها، أما الأولون فذكروا فيه وجوهاً:

الأول: أن لا ينفقوا في مهمات الجهاد أموالهم، فيستولي العدو عليهم ويهلكهم، وكأنه قيل: إن كنت من رجال الدين فأنفق مالك في سبيل الله وفي طلب مرضاته، وإن كنت من رجال الدنيا فأنفق مالك في دفع الهلاك والضرر عن نفسك.

الوجه الثاني: أنه تعالى لما أمره بالإنفاق نهاه عن أن ينفق كل ماله، فإن إنفاق كل المال يفضي إلى التهلكة عند الحاجة الشديدة إلى المأكول والمشروب والملبوس، فكان المراد منه ما ذكره في قوله: وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً﴾ [الفرقان: ٦٧] وفي قوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وأما الذين قالوا: المراد منه غير النفقة فذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: أن يُخِلُّوا بالجهاد فيتعرضوا للهلاك الذي هو عذاب النار، فحثّهم بذلك على التمسك بالجهاد، وهو كقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وثانيها: أن لا تقتحموا في الحرب بحيث لا ترجون النفع، ولا يكون لكم فيه إلا قتل أنفسكم، فإن ذلك لا يحل، وإنما يقتحم إذا طمع في النكاية وإن خاف القتل، فأما إذا كان آيساً من النكاية وكان الأغلب أنه مقتول فليس له أن يقدم عليه.

الوجه الثالث: أن يكون هذا متصلاً بقوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] أي فإن قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه فإن الحرمات قصاص، فجازوا اعتداءهم عليكم ولا تحملنكم حرمة الشهر على أن تستسلموا لمن قاتلكم فتهلكوا بترككم القتال، فإنكم بذلك تكونون ملقين بأيديكم إلى التهلكة.

الوجه الرابع: أنفقوا في سبيل الله ولا تقولوا إنا نخاف الفقر إن أنفقنا فنهلك ولا يبقى معنا شيء، فنهوا أن يجعلوا أنفسهم هالكين بالإنفاق، والمراد من هذا الجعل والإلقاء الحكم بذلك، كما يقال: جعل فلان فلاناً هالكاً وألقاه في الهلاك إذا حكم عليه بذلك.

الوجه الخامس: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ هو الرجل يصيب الذنب الذي يرى أنه لا ينفعه معه عمل، فذاك هو إلقاء النفس إلى التهلكة، فالحاصل أن معناه النهي عن القنوط عن رحمة الله؛ لأن ذلك يحمل الإنسان على ترك العبودية والإصرار على الذنب.

الوجه السادس: يحتمل أن يكون المراد وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا ذلك الإنفاق في التهلكة والإحباط، وذلك بأن تفعلوا بعد ذلك الإنفاق فعلاً يحبط ثوابه، إما بتذكير المنة، أو بذكر وجوه الرياء والسمعة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] (١).

ولا تعارض بين هذه المعاني كلها، ولا تضاد، فهذه الجملة من الآية الكريمة، وهي مثل وحكمة، جامعة من جوامع الكلم، تتسع لكل معنى صحيح محتمل، واختلاف الأقوال فيها ليس اختلاف تعارض، وإنما هو اختلاف تنوُّع..

كما أن سبب نزول الآية ما كان ليقصر الآية على معانٍ تقف عندها، وتحصر بها (٢)، وقديماً اتفقت كلمة الأئمة أن خصوص السبب لا يمنع من عموم اللفظ..

---

(١) ـ مفاتيح الغيب للإمام الرازي ٥: ١٣٦ـ ١٣٨ باختصار وتصرف يسير. ولا يخفى تداخل بعض هذه الوجوه، واختلاط بعض الوجوه التي عدَّها في القول الثاني مع القول الأول، وقارن خاصة الوجه الرابع والسادس بما جاء في وجوه القول الأول.

(٢) ـ وقد جاء في أسباب نزول هذه الآية عن أسلم أبي عمران قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم، أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم، حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس، إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام، وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. رواه الترمذي (٢٩٧٢).

يقول الإمام الآلوسي في تفسيره: (وظاهر اللفظ العموم)، (واستدل بالآية على تحريم الإقدام على ما يخاف منه تلف النفس، وجواز الصلح مع الكفار والبغاة، إذا خاف الإمام على نفسه، أو على المسلمين) [1].

ج ـ إيجاز اللفظ، وإعجاز المعنى:

خذ لذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، بعدما قال سبحانه: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، وهما كلمتان ذهبتا مثلين.. وجمعتا بين إيجاز اللفظ وإعجاز المعنى.. وفائدة الجملة الأولى: الترغيب في المصالحة، والثانية: تمهيد العذر في المماكسة والمشاقة، فالشح حاضر في النفوس، مطبوعة عليه! فالمرأة تشح ببذل نصيبها وحقها، والرجل لا يكاد يجود بالإنفاق وحسن العشرة، ولا يصبر أن يقضي عمره معها مع دمامة وجهها، وكبر سنها، وسفه لسانها، وسوء خلقها..

(وذكر شيخ الإسلام أن في ذلك تحقيقاً للصلح وتقريراً له، بحثّ كل من الزوجين عليه، لكن لا بالنظر إلى حال نفسه، فإن ذلك يستدعي التمادي في الشقاق، بل بالنظر إلى حال صاحبه، فإن شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجبلية بغير استمالة مما يحمل المرأة على بذل بعض حقوقها إليه لاستمالته، وكذا شح نفسها بحقوقها مما يحمل الرجل على أن يقنع من قبلها بشيء يسير، ولا يكلفها بذل الكثير، فيتحقق بذلك الصلح الذي هو خير) [2].

ـ ومعاني هاتين الجملتين لا تقف عند ذلك، بل هي قانون إلهي، يُحكِم الحياة الإنسانية في علاقاتها كلها، وينشئها نشأتها السوية المهذَّبة، ويرفعها عن الأثرة المفرّقة التي هي أشبه بقانون الحيوان في حياته الغريزية، التي لا ترتفع عن قانون الوجود وأسبابه القريبة، وضروراته المحدودة.. بل إن من الحيوان ما تحكمه هداية الله فيه

---

[1] . روح المعاني للإمام الآلوسي ٢: ٧٨.

[2] . روح المعاني للإمام الآلوسي ٥: ١٦٢.

بقانون أرقى وأجلّ مما ينحطُّ فيه بعض بني البشر، وصدق الله العظيم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

د. جوامع كلم، تتناسب مع تفاوت الأفهام البشرية، وتنوُّع إدراكاتها:

فقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.. ﴾ [النحل: ١٢٥]، ذهب مثلاً أول الآية: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ والجملة التي تليها: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فعندما يذهب داعية مذهباً في الدعوة مجافياً للحق، بعيداً عن الحكمة، يقال له: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾.. وعندما يجادل الداعية جدالاً لا تتضح فيه الحجة، ولا تستبين المحجة، وتعلو فيه الأصوات، ويكثر فيه اللغط والمراء.. أو لا يكون فيه البرهان مفحماً، ولا البينة ظاهرة جلية، يقال له حينئذٍ: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

فالحكمة، والتي هي أحسن، كلمات جامعة، تشمل معاني عند الناس ومفاهيم كثيرة، متعددة متنوعة، تبدأ من الفهم العامّي الشائع الذائع.. وتنتهي بالفهم الدقيق، الذي يفهم منه أهل الاختصاص ما لا يفهمه عامَّة الناس.

فمن معاني الحكمة: وضع الشيء في موضعه.. والإصابة في القول والعمل.. واتخاذ الوسائل الأجدى في كل موقف، وما أنزله الله على نبيه من الكتاب والسنة، فسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه، وأسلوبه في الدعوة، ومنهجه كله الحكمة، وهي المقالة المحكمة، والحجة القطعية المزيحة للشبه.. أو الكلام الصواب الواقع من النفس أجمل موقع.. وقد أعلى الله تعالى شأنها فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وهي من مهمات بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلم الأمة الحكمة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

(والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها. والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها. فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه) (1).

ويقول الإمام الرازي: (واعلم أنه تعالى أمر رسوله أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الأحسن، وقد ذكر الله تعالى هذا الجدل في آية أخرى فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ولما ذكر الله تعالى هذه الطرق الثلاثة وعطف بعضها على بعض، وجب أن تكون طرقا متغايرة متباينة، وما رأيت للمفسرين فيه كلاما ملخصاً مضبوطاً.

واعلم أن الدعوة إلى المذهب والمقالة لا بد وأن تكون مبنية على حجة وبينة، والمقصود من ذكر الحجة، إما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد في قلوب المستمعين، وإما أن يكون المقصود إلزام الخصم وإفحامه.

أما القسم الأول: فينقسم أيضا إلى قسمين: لأن الحجة إما أن تكون حجة حقيقية يقينية قطعية مبرأة عن احتمال النقيض، وإما أن لا تكون كذلك، بل تكون حجة تفيد الظن الظاهر والإقناع الكامل، فظهر بهذا التقسيم انحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة. أولها: الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وذلك هو المسمى بالحكمة، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات، وهي التي قال الله في صفتها: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وثانيها: الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية وهي الموعظة الحسنة.

---

(1) . في ظلال القرآن، لسيد قطب ٤: ٢٢٠٢.

وثالثها: الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم، وذلك هو الجدل)[1].

فمن خلال ما تقدم نلاحظ اتساع المعنى، وتناسبه مع تفاوت الأفهام، وتنوع الإدراكات..

ــ وأما قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يقول الإمام الآلوسي: (﴿وَجَادِلْهُمْ﴾ ناظر معانديهم، ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين، واختيار الوجه الأيسر، واستعمال المقدمات المشهورة، تسكيناً لشغبهم، وإطفاءً للهبهم، كما فعله الخليل عليه الصلاة والسلام)[2].

ويتابع الإمام الرازي ما نقل عنه سابقاً، فيقول: (ثم هذا الجدل على قسمين:

القسم الأول: أن يكون دليلاً مركباً من مقدمات مسلمة في المشهور عند الجمهور، أو من مقدمات مسلمة عند ذلك القائل، وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الأحسن.

والقسم الثاني: أن يكون ذلك الدليل مركباً من مقدمات باطلة فاسدة إلا أن قائلها يحاول ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب، والحيل الباطلة، والطرق الفاسدة، وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل إنما اللائق بهم هو القسم الأول، وذلك هو المراد بقوله تعالى: وجادلهم بالتي هي أحسن)[3].

---

[1] ( ) . مفاتيح الغيب ٢٠: ١٣٨.

[2] ( ) . روح المعاني ١٤: ٢٥٤.

[3] ( ) . مفاتيح الغيب ٢٠: ١٣٨.

فمن احتاج من المخالفين إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين، وحسن خطاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام حين أرسلهما إلى فرعون بقوله سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

(والجدل بالتي هي أحسن. بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح. حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة. وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها. والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة. ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها. في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر) (١)!

وبعد فالدعوة القرآنية إلى الجدل بالتي هي أحسن، أصبحت عنواناً على علم خاصّ، عرفه سلفنا من العلماء، فنظَّموا طرقه وأساليبه، وقعَّدوا أصوله ووسائله، وعدَّدوا آدابه، وأتوا في هذا الباب بالمناقب الجمة، والمدارك الدقيقة، والآداب الرقيقة..

وإلى هنا نأتي إلى ختام هذا المبحث التمهيدي، آملين أن نكون قد ألقينا الأضواء على بعض الجوانب المهمة، المتعلقة بضرب الأمثال في القرآن الكريم، لتمهد الطريق للحديث عن الأهداف التربوية، والآثار التربوية، لضرب الأمثال، والله المستعان، وعليه التكلان.

---

(١) . في ظلال القرآن، لسيد قطب ٤: ٢٢٠٢.

المبحث الثاني: الأهداف التربوية لضرب الأمثال في القرآن الكريم

ويشمل الحديث فيه الأهداف التالية:

ـ تمهيد: وفيه الفرق بين الأهداف والآثار.

١ـ الأهداف التربوية العامة، وتشمل:

أ ـ تعرية الباطل وتزييفه، وفضح مواقفه.

ب ـ توضيح الحق وتثبيته، وإقامة حججه وبراهينه.

ج ـ التحذير من عاقبة كفر النعمة، وبطر المعيشة.

د ـ استخلاص سنن الله تعالى في الكون والحياة والإنسان

٢ـ الأهداف التربوية الخاصة، ومن أهمها:

أ ـ تقريب الحقائق الغيبية للأذهان.

ب ـ تصوير الحقائق الإيمانية المجردة بصورة محسوسة.

ج ـ ربط عالم الشهادة بعالم الغيب.

د ـ فضح تناقض المشركين والمنافقين في مواقفهم.

هـ ـ تقرير حقائق للترغيب بها، أو التنفير منها.

و ـ تفاهة مواقف الكافرين من الحقائق الكبرى.

تمهيد:

الفرق بين الأهداف التربوية والآثار

التربية بضرب الأمثال لون من ألوان المنهج التربوي في القرآن الكريم، يتَّصل مع الألوان الأخرى، بأهدافه العامة، وآثاره العامة، وينفرد بأهدافه الخاصَّة، وآثاره الخاصَّة كذلك..

وإذا كان التصوير الفني في القرآن هو السمة العامَّة التي تطبع الأسلوب القرآني، وهو الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن ( )، فإن هذا التصوير ينتظم الأمثال القرآنية فيما ينتظم، ويتجلَّى فيها أعظم ما يتجلَّى، وهو الأداة المفضلة كذلك في رسم ملامح المثل، وإبراز أبعاده، وتحقيق آثاره..

وإذا كان التصوير الفني (يعبِّر بالصورة المحسَّة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسَّمة مرئية. فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردُّها شاخصة حاضرة؛ فيها الحياة، وفيها الحركة؛ فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل) ( ) [٢].

إذا كان التصوير الفني كذلك، فإن الأمثال في القرآن هي مادَّة أساسية من موادِّه، تتصل بها خصائص التصوير الفني، ليفعل (المثل) فعله في نفوس السامعين، وليؤدي

( ) - راجع: التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب ص ٣٤.

( ) - التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب ص ٣٤.

أهدافه التربوية، بصورة فريدة، ولتقوم آثاره التربوية بدورها الحيوي الفعَّال، في كل منفذ من منافذ التأثير في النفس البشرية.

ونتكلم في هذا المبحث عن أهداف ضرب الأمثال في القرآن الكريم، وهي تنقسم إلى أهداف عامة، وأهداف خاصة، ولا بد للدارس وكذلك المربي أن يلاحظها بقسميها عندما يدرس أي مثل من الأمثال، أو عندما يريد أن يضرب للناس الأمثال.

ونفتتح الكلام بالفرق بين الأهداف والآثار:

ـ فالأهداف ـ في موضوعنا الذي نبحث فيه ـ هي المُثُل الفكرية، والوجدانية، والسلوكية، التي يحرص المربي أو المتكلم على تحقيقها من خلال المثل الذي يضربه، وغرسها في نفوس المخاطبين أو السامعين.

ـ وأما الآثار فهي ـ على وجه الخصوص ـ الصورة العملية للأهداف المرسومة، أو التفاعل العملي للأهداف، ومستوى تحققها في الواقع.

ـ فالأهداف والآثار تتصل اتصالاً وثيقاً، وقد تتقارب وتلتقي، على حسب دقة المثل وصدقه، وتحقق عوامل تأثيره، وقد تفترق وتبتعد كثيراً أو قليلاً على حسب ما يعرض لها من اختلال ذاتي أو خارجي.

والحالة المثلى أن تتطابق الأهداف والآثار، أو بعبارة أخرى أن تتشكَّل الأهداف في صورة الواقع العملي، فتكون الآثار مظهراً لها، يبرهن على سموِّها وتألُّقِها.

ـ ومن خلال التعريف يظهر أن الأهداف تتصل بالناحية النظرية أو الفكرية على وجه الخصوص، وأن الآثار تتصل بالناحية العملية التطبيقية (الواقعية).

فالأهداف هي من قبيل ما ينبغي أن يتحقق أو يكون، والآثار هي الواقع الكائن، وهي تختلف قوة وضعفاً، ضيقاً وسعةً من إنسان لآخر.

ـ ولا يخفى أن الأمثال القرآنية، والأمثال النبوية الشريفة، هي خير ما يمثّل اتصال الأهداف التربوية للأمثال، بآثارها في التربية والتقويم، لما فيها من الإحاطة الدقيقة، بعوامل التأثير النفسي والفطري، ولما فيها من تحقق الجانب الأول والثاني من أنواع فوائد ضرب الأمثال، على حدِّ الإعجاز في القرآن الكريم، وعلى حدِّ السموِّ البلاغي في السنة النبوية، بصورة لا تطمع فيها آمال البلغاء، ولا تطمح إليها أنظار الفصحاء..

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣ـ ٤]

ـ وتتنوع الأهداف والآثار على ضوء ما أسلفنا في المبحث السابق، والذي يهمنا منها هنا: الأهداف والآثار التربوية فقط؛ لأنها هي التي تتعلق بموضوع دراستنا

الأهداف التربوية وأنواعها

نستطيع أن نحدد نوعين من الأهداف التربوية التي قصد إليها القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، من ضرب الأمثال

النوع الأول: الأهداف التربوية العامة، وتتجلى في الأهداف التالية:

أ ـ تعرية الباطل وتزييفه، وفضح مواقفه، ونقض حججه وإبطال مزاعمه، وبيان مصيره ومآله.

ب ـ توضيح الحق وتثبيته، وبيان مواقفه، وإقامة حججه وبراهينه، وتقرير عاقبته ومآله.

ـ ويشير إلى هذين الهدفين العامّين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

ـ وقد يجمع الله تعالى في المثل الواحد صورة لحقيقة الحق وعاقبته، وللباطل وعاقبته، لما للتقابل بين هاتين الصورتين من تأثير عظيم، ووقع كبير في نفوس السامعين، كما في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

ج ـ التحذير من عاقبة كفر النعمة، وبطر المعيشة، وسيطرة الأهواء والشهوات، والركون إلى الأرض، وتراكم غشاوات الغفلة، وبيان عاقبة ذلك، وأثره في الحياة الدنيا قبل الآخرة، بضرب الأمثال التاريخية، بحال الأمم السابقة ومآلها، يقول تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

ـ ويقول سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً. كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً. وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً. لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي

أَحداً. وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً. فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقاً. أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً. وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً. وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً. هُنَالِكَ الوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ [الكهف: ٣٢ـ ٤٤].

د ـ استخلاص سنن الله تعالى في الكون والحياة والإنسان، وأخذ العبرة من الأحداث التاريخية، وما فيها من نصرة الحق، ومحق الباطل، لربط الحاضر بالماضي، وبيان قدرة الله المحيطة بكل شيء، ولتوضيح طرف من حكمة الحق سبحانه في أقداره، يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا. ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٠ـ ١١].

ـ ويقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠ـ ٣١].

ـ وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

ـ ويقول تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً. وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ [الفرقان: ٣٧ـ ٣٩].

ـ ويقول سبحانه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ. وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦ـ ٨].

ـ ولا نستطيع أن نقف عند هذه الأهداف العامة بأكثر من ذلك، وإنما كان هدفنا الأساسي من ذكرها ربط الآثار التربوية بها، وبيان أن تلك الآثار ترتبط بمثل عليا، وجدانية وسلوكية، لا ينبغي أن تغيب عن بال المربي، أو يغفل عنها في تعامله ومواقفه.

والنوع الثاني من الأهداف: الأهداف التربوية الخاصة، ومن أهمها:

أ ـ تقريب الحقائق الغيبية للأذهان:

فمن الحقائق الغيبية ما يتعلق بصفات الله جل وعلا، وأسمائه الحسنى، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ. اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٤ـ ٣٥].

ـ ومن الحقائق الغيبية أيضاً: بطلان أعمال الكافرين، وعدم انتفاعهم بها في الآخرة، وفي ذلك يضرب الله تعالى عدة أمثال، فمنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ. أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٣٩ـ ٤٠].

وقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

ب ـ تصوير الحقائق الإيمانية المجردة بصورة محسوسة، ليكون أقوى في إقناع النفس بها، وأبلغ في التأثير.

فمن ذلك: تصوير عظمة قدرة الله، وشمول علمه، وإحاطته، بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف: ١٠٩].

ومن ذلك أيضاً: تمثيل حقيقة ما أعدَّ الله تعالى لعباده المنفقين أموالهم في سبيله، من ثواب في الآخرة، بحبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، لتتصور النفس عظيم الثواب بهذا المثل الحسي، فتندفع في الإنفاق والعطاء، يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ج ـ ربط عالم الشهادة بعالم الغيب، وبيان وثيق اتصالهما، والمقارنة بينهما، وشد الأذهان إلى الآخرة وخلودها، وتعليق القلوب، فمن ذلك قوله تعالى في بيان حقيقة الدنيا، ومثلها ومقامها من الآخرة: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقوله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ [الكهف: ٤٥].

د ـ فضح تناقض الكافرين أو المنافقين في مواقفهم، إذ يقفون من الأمور المتماثلة موقفاً متبايناً، فمن ذلك ما جاء في إثبات توحيد الله تعالى، ونفي الشركاء عنه كقوله

تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٧ـ ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ. فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٣ـ ٧٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ـ ٢٩].

هـ ـ تقرير حقيقة مّا، للتنفير منها أو للترغيب بها، لا يمكن للنفس الإنسانية أن تتصور أبعادها وخطرها لولا هذا التمثيل..

ـ فمن ذلك تمثيل تماسك صفوف المؤمنين في الجهاد في سبيل الله تعالى بالبنيان المرصوص، لترغيب المؤمنين بوحدة الكلمة، وألفة القلوب، والطاعة الدقيقة، والجندية الصادقة، وكل ذلك سبيل محبة الله ونصرته لعباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

ـ ومن ذلك تمثيل حال المعرض عن هداية الله تعالى بعد أن آتاه الله إياها، بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، لبيان حقيقة الإعراض عن آيات الله وهدايته، والتنفير من ذلك، يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ

مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ. مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ـ ١٧٨].

ـ ومن ذلك أيضاً: تمثيل الذي يحمل العلم ولا ينتفع به بالحمار يحمل أسفاراً، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة: ٥].

و ـ تصوير تفاهة مواقف الكافرين من الحقائق الكبرى، والسخرية من تلك المواقف، وإقامة الحجة على بطلانها، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ. أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٧ـ ١٨].

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٧ـ ٨١].

ويقول سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١ـ ٤٣].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

والعلاقة بين الأهداف الخاصة والأهداف العامة هي أن الأهداف العامة ما هي إلا الخطوط الرئيسة الكبرى التي تلتقي عندها الأهداف الخاصة وتعود إليها، بينما الأهداف الخاصة تتصل بصورة أوثق بالأمثال المضروبة نفسها، وطبيعة موضوعها.

المبحث الثالث: الآثار التربوية لضرب الأمثال في القرآن الكريم

ويشمل الحديث فيه ما يلي:

ـ توطئة وتمهيد..

ـ مثل تأثير القرآن الكريم في قلوب السامعين، وموعظة الله لعباده في ذلك:

النوع الأول من الآثار التربوية: الآثار الظاهرة، وتشمل الآثار التالية:

١ـ شد انتباه السامع إلى المتكلم.

٢ـ تلوين الأسلوب وتنويعه.

٣ـ حفظ الفكرة ونقلها وسريانها بين الناس.

٤ـ تنوع أساليب المثل ـ خاصة ـ وأثره التربوي

النوع الثاني من الآثار التربوية: الآثار من حيث المضمون، أو الآثار الذاتية للأمثال، وتشمل الآثار التالية:

١ـ التأثير الوجداني في السامع لغرس القناعة العقلية.

٢ـ توسيع الآفاق الفكرية والنفسية للسامع أو المتلقي.

٣ـ مزج التوجيهات التربوية بمقدمة المثل، وموضوعه وخاتمته، وإيحاءات المثل التربوية.

٤ـ تعامل الأمثال القرآنية مع أحاسيس النفس ومشاعرها، ومكامن التأثير فيها بصورة متوازنة.

٥ـ التصوير الفني للأمثال، وأثره النفسي والتربوي.

٦ـ واقعية الأمثال القرآنية.

٧ـ إيقاظ النفس من غفلة الركون إلى الدنيا، واتباع الأهواء والشهوات.

٨ـ الأثر السلوكي للمثل، وأنواعه

ـ نظرة جامعة

ـ خاتم المبحث الثالث

توطئة وتمهيد

ـ لا حاجة بنا إلى القول: إنه لم ينصّ القرآن الكريم، ولا السنة النبوية، على الآثار التربوية للأمثال ـ كما لم ينصّا على الأهداف التي استنتجناها فيما سلف ليذهب السامع فيها كل مذهب، ولأنها تختلف في نفوس السامعين، على حسب اهتماماتهم، وثقافاتهم، وبيئاتهم، وأزمانهم، ومستوياتهم، وأحوالهم النفسية والتربوية..

فالأمثال المعروضة صورة فنيَّة جذَّابة، تشدُّ السامعين، وتثير انتباههم، وتتفاعل في وجدانهم، وتدفعهم إلى التأمُّل الطويل، والتفكير الجادِّ في الفكرة التي يحملها المثل، ويبلِّغها للناس..

ومن ثمَّ تتنوَّع آثارها من سابع لآخر، بل في السامع نفسه بين حين وآخر، على حسب اختلاف اهتماماته وأوضاعه النفسية، والظروف التي يمرُّ بها.

ولا نبعد في القول إن قلنا: إن تأثير الأمثال القرآنية ـ وأعني التأثير الإيجابي حتماً ـ يتناول حتى الكافر والمنافق..

أفليس القرآن الكريم يكشف عن خبيئة نفوسهم، ويصف دقائق أحوالهم وخواطرهم، ونجاواهم ووساوسهم؟!

أوليسوا يشعرون في قرارة أنفسهم أن حجج القرآن دامغة، وأن حجتهم داحضة؟! وأن أقوال القرآن ضياء، وأن أقاويلهم محض افتراء وأهواء؟!

أوليس القرآن يقطع عليهم سبيل العناد والمكابرة، واللجج في الخصومة؟!

فماذا بعد ذلك من تأثير يبتغى في قوم ينكرون الرسالة، ويشكُّون في الوحي، ويترددون في الحق أقوى من هذا التأثير وأبلغ؟!

إلا أن قدراً مشتركاً عاماً من التأثير في المخاطبين، لا تخلو منه أمثال القرآن الكريم، والسنة النبوية، ولكنه يتفاوت بين إنسان وآخر في مقداره ونوعه، وقوَّته وضعفه، وعمقه وسطحيته، واستمراره وزواله، على حسب استعداد الإنسان وتلقِّيه..

وقبل البدء عن تفصيل الحديث في الآثار التربوية لضرب الأمثال نحب أن نوضح أن الله تعالى ضرب المثل لتأثير كتابه الكريم، وكلامه المعجز، في قلوب السامعين بأنه لو كان نزوله على جبل، وهو الصخر الصلد الأصمّ، لخشع وتصدَّع من خشية الله تعالى، فكيف وقد نزل لهداية قلوب البشر التي جعل الله لها من عوامل التأثير الفطرية، وجعل لها من طبيعتها وتكوينها ما يجعلها تلين تخشع، وتستجيب وتخضع، فقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ووصف الله أثر كلامه نفوس المؤمنين به، فقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢- ٢٣].

ووصف الله أثر آياته في نفوس الذين أوتوا العلم من قبل، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣- ٨٤].

وقال سبحانه: ﴿وَبِالحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً. قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [الإسراء: ١٠٥- ١٠٩].

وعاتب الله عباده المؤمنين إذ لم تخشع قلوبهم لذكر الله، وما نزل من الحق، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، فضرب لهم مثلاً بالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، وسبيل مرضاته، ضرب لهم هذا المثل كيلا يكونوا مثل أهل الكتاب، وهم الذين وصفهم الله في آيات أخرى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

ثم خاطب عباده وبين لهم أنه سبحانه يحي الأرض بعد موتها، بما ينزل عليها من الغيث، وكذلك يحي القلوب الميتة بنور الوحي، وفيوضات الهداية، التي يمنُّ بها على عباده، فلا تيأسوا من حياة قلوبكم، كما لا تيأسون من رحمة ربكم التي تجود الأرض فتحيي مواتها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

وبعد، فيمكن تصنيف الآثار التربوية للأمثال في نوعين:

النوع الأول

الآثار الظاهرة

وهي من قبيل آثار المثل من حيث الشكل، وأهمها:

١ـ شد انتباه السامع إلى المتكلم، وحمله على التفاعل مع الموضوع المثار.

وهذا أول ما ينبغي أن يحرص عليه المتكلِّم أن يشدَّ انتباه السامعين، ويثير اهتمامهم بما يقول، ويجذب أنظارهم إلى حديثه..

٢ـ التلوين في أسلوب المتكلم مما يدفع الملل والسآمة عن السامعين، ويجعلهم في نشاط متجدد، لاستيعاب الفكرة، وفهم أبعادها، وإدراك آثارها..

فمن الأمثال القرآنية التي تجمع لنا هذين الأثرين، ما جاء في وصف المنافقين في مقدمات سورة البقرة، فقد عدَّد الله صفاتهم في تسع آيات، تفضح طويّتهم، وتكشف عن زيغهم، وتناقش فساد مواقفهم، وقررت الآيات حقائق عنهم، وحاورتهم وردَّت عليهم، ثم ضرب الله لنا مثلين عنهم، يجمعان ما تقرَّر من حقائق، ويصفان حالتهم النفسية وما يعانونه من عذاب نفسيٍّ مرير، وصراع داخلي عميق، يكاد يفجِّر قلوبهم، ويفصم شخصيتهم، ويمزِّق كيانهم، ولَعذاب الآخرة أكبر.

فاقرأ هذه الآيات بتدبر، وانظر إلى الأثرين اللذين أسلفناهما لك، بارزين جليين، من عرض المثلين عن المنافقين، في نهاية الحديث عن صفاتهم، فكان الحوار العقلي بلغ غايته، وكأن السامع يخشى عليه ألَّا يبقى مشدوداً كما كان أول عهده بالفكرة، فجاءت الأمثال لتشد انتباهه من جديد، ولتعطي تلويناً في الأسلوب القرآني، يختتم به الحديث كأحسن ما ابتدأ..

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ. فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ. وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ. مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ. أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ. يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٨ـ ٢٠].

٣ـ حفظ الفكرة ونقلها وسريانها بين الناس، وصياغة حقائق عظيمة في كلمات قليلة، ويستوي في ذلك الأمثال السائرة والأمثال المركبة.

فالأمثال خزائن الفكرة، وحرَّاس حقائقها، ووسائل نشرها وبثِّها..

ـ ولنلاحظ دور الأمثال التالية في تصوير الفكرة، وحفظها ونقلها بين الناس، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

فشتان بين تصوير الفكرة بهذا المثل المحسوس المتحرِّك، وبين أن نقول: إن الكلمة الطيبة تثمر أنواع الخير كل حين بإذن ربها.. أو ما يشبه هذا الكلام.

فالمثل القرآني صوَّر الفكرة، وكان تصويره وسيلة من وسائل حفظها، وشيوعها بين الناس، وكأنه منحها الحياة المتحركة..

ـ ويقول تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فما أوسعَ البون بين صياغة الفكرة بهذا المثل، وبين أن نعبِّر عنها فنقول: (إن القرآن عظيم التأثير في نفوس سامعيه، تخشع القلوب لآياته، وتلين النفوس العصية لعظاته وكلماته، ويغرس خشية الله وتقواه، وهدايته وطاعته..) أو ما يشبه هذا القول؟!

ـ ويصوِّر النبي صلى الله عليه وسلم سرعة مضي الدنيا وزوالها، وانتقال الإنسان منها إلى الدار الآخرة، فيأتي على ذلك بمثل، كلماته قليلة، ولكنه يصوِّر أبدع تصوير وأدقه سرعة انقضاء حياة الإنسان على هذه الأرض، فيقول: (مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فِي يَوْمٍ حارٍّ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) (١).

ـ ويصوِّر النبي صلى الله عليه وسلم خطر الجليس السوء وآثاره السيئة، وما يعود به الجليس المؤمن، والصاحب المستقيم على طاعة الله تعالى، الناصح لإخوانه وجلسائه،

---

(١) . رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩) وأحمد (٤٢٠٨).

فيضرب لذلك مثلاً يستوعب الفكرة، ويصورها أبلغ تصوير وأدقه، فيقول: (إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً) (١).

فانظر إلى هذا المثل العظيم كيف استوعب الفكرة، وجمعها من أطرافها، وسهَّل نشرها وإذاعتها، والتأثير الفطري بها، بما حوى في ثناياه من معانٍ حسيَّة لا يسع الناس جميعاً إلا أن يقفوا منها موقفاً واحداً..

٤ـ تنوع أسلوب المثل ـ خاصة ـ وأثره التربوي:

فالأمثال القرآنية ـ شأنها كشأن جميع الموضوعات التي تحدَّث فيها القرآن ـ لا تتخذ أسلوباً واحداً في طريقة عرضها وأدائها، فهناك التمثيل المباشر، وهو الذي يذكر فيه التمثيل بلفظه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ.. ﴾ الآية [التحريم: ١١]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا..) الحديث، وقوله أيضاً: (إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالجَلِيسِ السَّوْءِ..) الحديث، وقد سبق قريباً.

ـ وهناك المثل المفهوم من الصورة، الذي لم يصرح فيه بلفظ المثل، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٧ـ ٢٨].

ـ ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف: ١٠٩].

---

(١) ـ رواه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

ـ وقد يتخذ المثل الأسلوب الحواري، أو أسلوب الاستفهام بأغراضه المتنوعة، ويسلك مسالك شتَّى لإثارة السامع وشدِّه إلى الصورة المعروضة بكل قواه ومشاعره وأحاسيسه، لتشترك جميعها في تفهُّم المثل والتأثر به..

ـ ومن يتدبر ما سبق من الأمثال القرآنية يجد أن كل مثل منها يتخذ أسلوباً لائقاً بموضوعه، جديداً في ذاته، مشوقاً للسامع، مثيراً لانتباهه.

ويهمنا في هذه الإلمامة الموجزة أن نستجلي الأثر التربوي لتنوُّع أسلوب المثل في القرآن الكريم بصورة عامَّة.

ـ فمع ملاحظة أن تلوُّن أسلوب المثل يتناسب مع أغراضه وموضوعاته، كالترغيب والترهيب، أو الذكرى والموعظة، أو التقريع والتوبيخ، أو التشويق، أو إثارة البداهة الفطرية لتدبر آيات الله في الأنفس والآفاق، فإن تلوُّن أسلوب كل مثل بما يناسب موضوعه، يجعل السامع أمام صورة جذابة جديدة، لها تأثيرها الخاص، ولها تجديدها للنفس لتستقبل الهداية الإلهية، وخاصة إذا لاحظنا أن القرآن الكريم ـ وهو كلام الله المعجز ـ يحيط بالنفس البشرية، ويستخدم المؤثرات كلها لينفذ إلى صميمها، ويملك عليها أقطارها.

النوع الثاني

الآثار التربوية من حيث المضمون

وهي آثار الأمثال من حيث المضمون، أو الآثار الذاتية للأمثال، وأهمها:

١ـ التأثير الوجداني في السامع لغرس القناعة العقلية.

(بين القناعة العقلية، والتأثير الوجداني)

لقد كانت وظيفة القرآن الكريم أن ينشئ العقيدة الخالصة، وموطن العقيدة هو الضمير والوجدان، وأقرب الطرق إلى الضمير هو البداهة، وأقرب إلى الوجدان هو الحس..

وما الذهن في هذا المجال إلا منفذ واحد من منافذ كثيرة، وليس هو على أية حال أوسع المنافذ، ولا أصدقها، ولا أقربها طريقاً.

وبعض الناس يضخِّمون من قيمة هذا الذهن في هذه الأيام، بعدما فتن الناس بآثار الذهن في المخترعات والمصنوعات والكشوف، وبعض البسطاء من أهل الدين تبهره هذه الفتنة، فيؤمن بها، ويحاول أن يدعم الدين بتطبيق نظرياته على قواعد المنطق الذهني، أو التجريب العملي..

إن العقل الإنساني ما هو إلا كوّة واحدة من كوى النفس الكثيرة، ولن يغلق إنسان على نفسه هذه المنافذ إلا وفي نفسه ضيق، وفي قواه انحسار، لا يصلح بهما للحكم في هذه الشؤون الكبار..

فلندع الذهن يدبِّر أمر الحياة اليومية الواقعة، أو يتناول من المسائل ما هو بسبب من هذه الحياة، فأما العقيدة، فهي في أفقها العالي هناك، لا يرقى إليه إلا من يسلك سبيل البداهة، ويهتدي بهدى البصيرة، ويفتح حسه وقلبه لتلقِّي الأصداء والأضواء..

لقد عمد القرآن دائماً إلى لمس البداهة، وإيقاظ الإحساس، لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة، ويتخطاهما إلى الوجدان، وكانت مادَّته هي المشاهد المحسوسة، والحوادث المنظورة ( )، والأمثال المضروبة. [١]

فالقناعة العقلية تعطي دائماً صورة من الإيمان الباهت إن تجردت عن التفاعل الوجداني، أشبه بتعامل الإنسان مع الأرقام الحسابية، لا يتفاعل معها شعور، ولا تحدِّد اتجاهاً، ولا تقود خطى.

( ) . من: التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب ص ١٨٤ـ ١٨٦ باختصار وتصرف. ولا يعني كلام سيد رحمه الله تعالى أن هناك تعارضاً بين القناعة العقلية والمنطق الوجداني، بل إن المنطق الوجداني هو السبيل الأمثل لغرس القناعة العقلية، وإيقاظ العقل وتنبيهه، واستنهاضه للإذعان إلى الحقائق الخالدة، ولعل في كلام الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ما يلقي الضوء أكثر على هذه الحقيقة، ويحدّد معالمها بصورة أمثل.

ويقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: (إن القرآن لا يخاطب العقل فقط إلا حيثما ينبهه إلى حقيقة علمية، أو فكرية مجردة ( )، فإذا ما أراد إثارة شيء من كوامن الوجدان في النفس اتخذ إلى ذلك أسلوب الوصف والتصوير، ووضع من ذلك أمام خيال القارئ أو السامع أدق مرآة تبرز فيها الصورة المطلوبة بكل وضوح..

وليس في ذلك أي إجحاف بقيمة العقل والفكر، بل فيه التنسيق والتمييز، اللذان لا بد منهما بين عمل كل من الفكرة والوجدان، إذ إن الحاجة داعية إلى كل منهما للنهوض بأي عمل أو سلوك إصلاحي؛ لأن أحدهما ـ وهو العقل ـ يرسم ويخطّط، والثاني ـ وهو الوجدان ـ يدفع إلى التطبيق والتنفيذ، ولا يقوم أحدهما بشيء مما يقوم به الآخر..

فالإثارة الوجدانية إنما تعتمد على الصورة المؤثرة توضع أمام الخيال والشعور) ( ).

ـ والقرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز، يهدف بكل موضوعاته وأساليبه إلى سوق النفس البشرية إلى هداية الله تعالى في كل شأن من شؤون الحياة.

والأمثال وهي جانب هام من موضوعات القرآن ـ بحدِّ ذاتها وبصورة عامة ـ تغرس القناعة العقلية بما تتحدث عنه من موضوعات، ولكنها بصورة خاصة تغرس بأساليبها المتنوعة التي سبقت الإشارة إليها القناعة العقلية عن طريق التأثير الوجداني في السامعين، ووسائل هذا التأثير كثيرة متنوّعة.

فلنعد إلى بعض الأمثال القرآنية، نستجلي منها التأثير الوجداني في السامعين، لغرس القناعة العقلية ببعض الحقائق.

ـ يقول الله تعالى في وصف المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ

( ) . ولكن ما أندر تلك الصورة! وما أقل وقوعها في القرآن!

( ) . مقتطفات من: منهج تربوي فريد في القرآن، ص ٧٢ـ ٨١ باختصار وتصرف يسير.

لَا يَرْجِعُونَ. أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ. يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧ـ ٢٠].

ونعرض بإشارات سريعة مواطن التأثير الوجداني والنفسي في هذين المثلين، ودورهما في فضح المنافقين، والتنفير من فساد طوّيتهم وسلوكهم.

فلنلاحظ في هذين المثلين ما يلي:

ـ أثر المقابلة بين ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ وبين ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾

ـ ذكر الصمم والبكم والعمى، ومناسبة ذكر العمى خاصة لفقد النور

ـ ذكر الظلمات في الصيِّب، وكذلك الرعد والبرق، وأثر ذلك النفسي، إذ إنها أمور مخوفة مرهوبة..

ـ صورة جعلهم أصابعهم في آذانهم من الصواعق (حذر الموت)، والأثر النفسي لخوف الموت في النفس البشرية، كل نفس عموماً.

ـ المقابلة بين ﴿أَضَاءَ لَهُمْ﴾ ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾.

ـ الأثر النفسي بالخوف من ذهاب الله بالسمع والأبصار..

وبعد استعراض هذه النقاط التفصيلية عن هذين المثلين نلاحظ أنها كلها يجمعها تأثير وجداني عميق، وأنها ذات أثر نفسي فعّال، لما أنها تعرض صوراً تنفر منها النفس البشرية، وتحذر الوقوع فيها، هي مثال ما عليه المنافقون، وما تنطوي عليه سرائرهم من فساد عميق، وخبثٍ مستعصٍ، وسلوك متخبط حيران.

ـ ويقول تعالى في وصف حال الذي آتاه الله آياته، فانسلخ منها: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ـ ١٧٦].

ـ المعنى العام للمثل:

شبَّه الله تعالى من آتاه كتابه، وعلَّمه العلم، فترك العمل به، واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدراً، وأخسها وأخبثها نفساً، إن تطرده يلهث، أو تتركه يلهث، فهذا مثل مَن يترك الهدى، وأشد الضلالة: ما كان بعد هدى..

قال الحسن رحمه الله تعالى: (هو المنافق لا يثبت على الحق، دعي أو لم يدع، وعظ أو لم يوعظ، كالكلب يلهث طرد أو ترك).

وقال محمد بن قتيبة: (كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الرحة، وحال الصحة وحال المرض والعطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته).

ونشير إلى مواطن التأثير الوجداني في هذا المثل، التي لها أكبر الأثر في غرس القناعة العقلية بضرورة التزام سبيل الهدى، والإعراض عن أسباب الانحراف، خوف سوء الأحدوثة، والشقاء في الآخرة، فلنلاحظ هذه الجمل القرآنية:

ـ ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾، ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾، نسب الضمير في الأولى إلى الله تعالى، وفي الثانية إلى الإنسان الضالّ بعد الهدى.. ولننتبه إلى المقابلة بين الفعلين: الإيتاء والانسلاخ، وأثرهما النفسي والوجداني.

ـ صورة الشيطان في النفس، وأثرها، وهو يتبع الإنسان الضال..

ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، وهي تشبه ما جاء في النقطة الأولى.

ـ ويجلِّي الإمام ابن القيم رحمه الله هذه النقاط، ويلمسها لمسات تربوية وبيانية رائعة، فيقول: (وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى،

فمنها: قوله: ﴿آتيناه آيَاتِنَا﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته فإنها نعمة من الله، هو الذي أنعم بها عليه فأضافها إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد ينسلخ عن اللحم، ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبَّب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها: قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾، أي لحقه وأدركه، كما قال تعالى في قوم فرعون: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]، فكان محفوظاً محروساً بآيات الله، محميَّ الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئاً إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء.

ومنها: أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره، وقصد مرضاة الله تعالى، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به، فتعوَّذ بالله من علم لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأساً، فإن الخافض الرافع هو الله سبحانه.. خفضه ولم يرفعه، والمعنى: ولو شئنا فضّلناه وشرّفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه) ( ).

ـ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ: أي ركن، أو لزمها وأبطأ، وقال الزجاج: وأخلد وخلّد، وأصله من الخلود، وهو الدوام والبقاء.

وَاتَّبَعَ هَوَاهُ: أي اتبع سفساف الأمور، وترك معاليها، وآثر الدنيا على الآخرة، ومرضاة الناس على مرضاة الله..

ـ ويضرب الله تعالى مثلاً من أنفسهم قريباً منهم، ماسّاً بهم، عظيم التأثير الوجداني في قلوبهم، لا يستطيعون المكابرة بحقائقه، ولا إنكار مثله.. مع أنهم يصرون على الشرك بالله واتخاذ الأنداد مع الله، فيقول تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

والمعنى العام:

أي ضرب لكم أيها القوم مثلاً من واقعكم، هل يرضى أحدكم أن يكون عبده ومملوكه شريكاً له في ماله الذي رزقه الله إياه؟ فإذا لم يرضَ أحدكم ذلك لنفسه، فكيف تنسبون لله الشريك وهو عبد مخلوق لله تعالى؟! ولستم وعبيدكم سواء في أموالكم، ولستم تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم، وأنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم، فكيف رضيتم لله شريكاً في خلقه وملكه ( )؟

( ) ـ الأمثال في القرآن الكريم للإمام ابن القيم ص ٢١٨ـ ٢٢٢ بتصرف يسير.

( ) ـ صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني ٢: ٤٧٧.

فيثير الله تعالى بهذا المثل مشاعر النفس البشرية إلى حقيقة نفسية عميقة في كيانها، لا تستطيع المكابرة بها، بل هي بدهية لا تقبل الجدل أو المماحكة، ليخلص إلى حقيقة، يجادل بها المبطلون، ويكابر بها المشـركون، ألا وهي نفي الأنداد والشركاء عن الله تعالى.

ـ ونستطيع أن نلمس نقاط التأثير الوجداني في هذا المثل ومكامنه في الألفاظ القرآنية التالية:

ـ ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.

ـ ثم نلاحظ خطاب العقول لغرس القناعة العقلية، بما ختمت به الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ويشير إلى هذا، قول الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى عن هذا المثل:

(وهذا دليل قياس احتجَّ الله سبحانه به على المشركين، حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم، ولا يحتاجون فيها إلى غيرهم، ومن أبلغ الحجاج: أن يؤخذ الإنسان من نفسه، ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندهم، معلوم لها...

فإن كان هذا الحكم باطلاً في خاطركم وعقولكم مع أنه جائز عليكم، وممكن في حقكم، إذ ليس عبيدكم ملكاً لكم حقيقة، وإنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، وأنتم وهم عبادي، فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي مع أن من جعلتموهم لي شركاء هم عبيدي وملكي وخلقي؟! فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول) (1).

(1) ـ الأمثال في القرآن الكريم للإمام ابن القيم ص ٢٠١ـ ٢٠٣.

٢ـ والأثر الثاني من الآثار التربوية للأمثال من حيث المضمون: توسيع آفاق السامع أو المتلقي، الفكرية والنفسية، بتدريبه على ربط المعقولات بالمحسوسات، والانتقال من التجريد إلى المحسوس، ومن المحسوس إلى التجريد.. وربط المفاهيم المجردة، وتقريبها من الواقع المحسوس، وقياس الغائب على الشاهد..

ولا يخفى أن لربط المعقولات بالمحسوسات، وتقريبها للسامع أو المتلقِّي، أهمية تربوية كبيرة، في توسيع آفاقه الفكرية والنفسية.

وإن حقيقة الإيمان لن تسكن قلباً حبيس المحسوسات، لا يتعداها تفكيره، ولا يؤمن بما وراءها من حقائق، وقد امتنَّ الله تعالى على عباده بتقديم الآيات العظيمة، الدالة على وحدانيته وقدرته، وعظيم أسمائه وصفاته، وقد بثَّها الله سبحانه في الآفاق وفي الأنفس، وهي آيات مشهودة محسوسة، لتقود الناس إلى رحاب الإيمان وحقائقه ومفاهيمه.

وليشهد الإنسان نظام الوحدة الذي يجمع أجزاء الكون بدقائقها وأجرامها، بصورة متناسقة متكاملة، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

والأمثلة على هذا الأثر التربوي كثيرة، إذ إن كل ما جاء في القرآن الكريم من أمثال، هو من قبيل تقريب الحقائق المعقولة إلى أذهان السامعين، بربطها بصور حسية، ولكنَّ نوعاً منها ـ وهو الذي نريده هنا ـ فيه قياس الغائب على الشاهد، وربط الجزئي المشهود، بكلِّيٍّ ينتظمه ويشمله، وفيه تربية وتدريب للسامع والمتلقي على التجريد وتكوين المفاهيم، وربطها بالواقع المحسوس، وربط عالم الغيب بالشهادة.

١ـ فمن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾ [الإسراء: ٩٩].

٢ـ ومثله قوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

٣ـ وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

٤ـ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ العَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ـ ٨٣].

٥ـ وقوله عزَّ من قائل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً. انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً. وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً. قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً. أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً. يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٧ـ ٥٢].

ـ ففي الآية الأولى ضرب الله مثل إعادة الخلق بخلق السموات والأرض، الذي يقر به المشركون، فربط حقيقة إيمانية معقولة بأمر محسوس مشهود.

ـ وفي الآية الثانية والثالثة مثَّل لإعادة الخلق بعد فنائه، وهو أمر غيبي معقول، ببدء خلقه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وهو أمر مشهود، إذ إن كل عاقل يشهد بدء الخلق في الإنسان والحيوان والنبات، ويرى نموَّه وتطوُّرَه، ولا يستطيع أن يدعي أن ذلك فعله..

ـ وأشارت الآية الثانية إلى حقيقة مسلَّمة في أنظار جميع العقلاء، وهي أن الإعادة أهون من البدء، فمن كان قادراً على بدء الخلق، فهو على إعادته أقدر.

ـ وزادت الآيات في النصِّ الرابع أن الإله القادر على خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق الناس مرة أخرى، إذ إن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، فمن كان قادراً على ما هو أكبر وأعظم، فهو قادر على إعادة الخلق بعد إفنائه.

ـ وفي النصِّ الخامس: يؤكد الله تبارك وتعالى القدرة على إعادة الخلق بعد فنائه، ويقيس للناس ذلك على بدء الخلق، ويسوقه مساق التحدي والتهديد، فيستعرض استنكار المشركين للبعث بعد الموت: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ [الإسراء: ٤٩]؟! ثم يرد عليهم متحدياً: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً. أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥٠ـ ٥١]، فمن خلق أول مرة قادر على أن يعيد الخلق، ولتكون الأجساد ما تكون ولتتحوَّل إلى أي صورة، ولتدخل في أي مادة في هذا الكون..

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ [الإسراء: ٥١]. يقال: أنغض رأسه: أي حركه إلى فوق وإلى أسفل، أي يحركونها استهزاءً برسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ( )، ثم يصف لهم مشهد

( ) ـ معاني القرآن للفراء ٢: ١٢٥، والدر المنثور للسيوطي٤: ١٨٧.

البعث، وكيف أنهم يساقون إليه سَوقاً، فيقبلون مستجيبين بحمد الله، لا يملكون من الأمر شيئاً، ويظنُّون إن لبثوا إلا قليلاً..

وبذلك نلاحظ أن هذا الأثر التربوي الهامّ، له دور كبير في تكوين النضج العقلي، ودقة الشعور النفسي، والوعي الداخلي، وكل ذلك يتم غرسه بصورة أدبية مشوِّقة..

٣ـ والأثر الثالث من الآثار التربوية للأمثال من حيث المضمون: مزج التوجيهات التربوية بمقدمة المثل، وموضوعه وخاتمته، وبثها فيه، وانسجام أجزاء المثل بها.

وإن الدارس لأمثال القرآن الكريم، والسنة النبوية، يرى أنها تصطبغ بصبغة التوجيه والإرشاد، وتبرز أهدافها التربوية لافتة للأنظار، تفعل فعلها في النفوس، وتثمر أطيب الآثار، فالهدف التربوي هو الحاكم في موضوعات القرآن الكريم وأساليبه، وبذلك فإن السامع لا يكون عند سماع المثل أمام صورة فنيَّة أدبيَّة، تستهويه أجزاؤها، وتأخذه جِدَّتها وطرافتها.. وإنما أمام مزيج تربوي معتدل، من التوجيهات، تأسر نفسه، وتحرِّك مشاعره، وتوقظ قلبه..

ويستوي في هذا الأثر ما يأتي مقدمة للمثل، أو خاتمة له، وتعقيباً عليه، أو يكون في ثنايا المثل وضمن موضوعه..

وإن على المربي ألا يغفل عن الغرض الأساسي من ضرب المثل، فيلتفت إلى نقاط فرعية، أو جوانب خارجة عن موضوع المثل، تشغل ذهن المستمع، وتصرفه عن الهدف الرئيسي من ضرب المثل، وربما أدَّت إلى عكس الغرض المطلوب؛ لأن وحي ما فيها من نقاط فرعية، أو خارجة عن طبيعة المثل، يغلب على ما أريد لها من توجيه وأثر، فلا تحقِّق مثل هذه الأمثال أهدافها ولا آثارها التربوية..

أما الأمثال التي تمتزج فيها التوجيهات التربوية، وتتخلل أجزاءها، وتتقدمها وتتعقَّبها، فإنها ذات أثر كبير في تطويع العقول الأبيَّة، وترقيق القلوب الغافلة، وتليين

النفوس العصيَّة، وهي ذات إيحاءات تربوية لا تقف عند حدّ، سنخصها بالحديث بعون الله تعالى.

فلنعد إلى الأمثال القرآنية التي توضّح لنا هذا الأثر، وسوف نرتّب الأمثال ذات المقدمات أو التمهيدات، والتعقيبات، بصورة مناسبة، ثم نتكلم قدر المستطاع على ما فيها من إيحاءات تربوية، يقول الله تعالى:

١ـ مقدمة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٥ـ ١٧٦].

٢ـ موضوع المثل: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

٣ـ التعقيب على المثل: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦ـ ١٧٨].

ـ نلاحظ من حيث الشكل أن مقدمة المثل وتمهيده أخذ آية وثلث آية، وأن المثل نفسه قدّمت صورته في ثلث آية أخرى، مع ملاحظة دور التمهيد في رسم صورة المثل.. وأما التعقيب على المثل فقد استغرق آيتين وثلث آية، ويمكن أن نعد الآية الأخيرة أيضاً تمهيداً ومقدمة للمثل اللاحق الذي سيأتي الكلام عليه بعون الله تعالى. هذا من ناحية الشكل..

أما من حيث المضمون، فقد سبق الكلام عن مقدمة هذا المثل وموضوعه عند الكلام على الأثر الأول من الآثار التربوية بما يناسب المقام هاك، وبما يعد من التوجيهات التربوية في هذا المقام..

ـ أما التعقيب على المثل وما فيه من توجيهات تربوية فنستطيع أن نلتمس ذلك في إيحاءات التعبيرات القرآنية التالية التي جاءت عقيب المثل:

ـ ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا..

ـ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.

ـ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

ـ وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

ويمكن أن نصوغ هذه التوجيهات التربوية التي جاءت عقب المثل بالنقاط التالية:

ـ أن التنكب عن سبيل الله وترك هدايته شأن المكذبين الغاوين الذين لم ينتفعوا بآيات الله وهديه..

ـ أن للمكذبين الضالين أسوأ الأمثال التي تكشف حقيقتهم، وتنفِّر من سلوكهم.

ـ أن هؤلاء المكذبين لم يضروا الله شيئاً بتكذيب آياته، وإنما ظلموا أنفسهم، فحرموها النور والهداية، وأوردوها موارد الهلاك والخسران المبين.

الإيحاءات التربوية للمثل:

أما الإيحاءات التربوية لهذا المثل، فلنترك ذلك لقلم الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى ليصور لنا ذلك في ظلاله، وليرسم لنا أبعاده وإيحاءاته، وصوره الواقعية في حياة بعض الناس، يقول رحمه الله تعالى: (نأخذ من النبأ ما وراءه. فهو يمثِّل حال الذين يكذِّبون بآيات الله بعد أن تبين لهم، فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها.. وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر.. وما أكثر الذين يُعطَون علمَ دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه. واتباع الهوى به.. هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم ـ في وهمهم ـ عرض الحياة الدنيا!

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً!

لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوق الله سبحانه مَن ادَّعاه فقد ادَّعى الألوهية، ومن ادعى الألوهية فقد كفر، ومن أقرَّ له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضاً! ومع ذلك.. مع علمه بهذه الحقيقة التي يعلمها من الدين بالضرورة، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدَّعون حق التشريع، ويدَّعون الألوهية بادعاء هذا الحق.. ممن حكم عليهم هو بالكفر! ويسميهم «المسلمين»! ويسمي ما يزاولونه إسلاماً لا إسلام بعده! ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاماً، ثم يكتب في حله كذلك عاماً آخر.. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه..

فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقا لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين؟ وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذي يحكيه الله سبحانه عن صاحب النبأ: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها، وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ. فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾! ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته، ولكنه سبحانه لم يشأ؛ لأن ذلك الذي علم الآيات أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ولم يتبع الآيات..

إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله فلم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإيمان، وانسلخ من نعمة الله، ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان، ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان!

ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع؟ إنه في حسِّنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهده في القرآن، ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ

الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها. ذلك اللهاث القلق الذي لا يطمئن أبداً، والذي لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه فهو منطلق فيه أبداً!

والحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة.. حتى إنه لتمرّ فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثله. فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله، ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض ولا يتبعون الهوى ولا يستذلهم الشيطان ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان!

فهو مثل لا ينقطع وروده ووجوده، وما هو بمحصور في قصة وقعت، في جيل من الزمان! وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات الله، كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها، ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يتلى، ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدو، فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة!

ولقد رأينا من هؤلاء والعياذ بالله في زماننا هذا من كان كأنما يحرص على ظلم نفسه أو كمن يعضُّ بالنواجذ على مكان له في قعر جهنم يخشى أن ينازعه إياه أحد من المتسابقين معه في الحلبة! فهو ما يني يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا في جهنم! وما يني يلهث وراء هذا المطمع لهاثاً لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا!

اللّهُمَّ اعصمنا، وثبت أقدامنا، وأفرغ علينا صبرا، وتوفنا مسلمين..) [1].

وبعد هذا المثل بمقدمته وتمهيده، وتعقيباته وإيحاءاته، يأتي مثل آخر يتصل به أوثق اتصال، يقول تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ

[1] - في ظلال القرآن ٣: ١٣٩٧، فما بعد، وانظر تتمة إيحاءات هذا المثل، فهي نفيسة جداً لم أنقلها خشية الإطالة.

الْخَاسِرُونَ. وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨ـ ١٧٩].

إنه يمثل ويفسر الحقيقة الكلية لحال أولئك الساقطين الغاوين، الذين انسلخوا عن آيات الله تعالى بعد أن آتاهم الله إياها..

وتأتي قبل المثل مقدمة ممهِّدة تقرِّر حقيقة إيمانية، وهي أن من يهديه الله تعالى هو المهتدي حقاً، وهو المفلح في الآخرة، ومن يضله الله فهو الخاسر الذي خسر كل شيء، وماذا يربح بعد أن يكون قد خسر نفسه؟!

ثم تأتي الآية التي فيها المثل تؤكِّد أن كثيرين من الجن والإنس مخلوقون لجهنم، يستحقونها بما قدمت أيديهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

يأتي المثل بعد تقرير هذه الحقائق عن هؤلاء المخلوقين من الجن والإنس: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

إنهم أضل من الأنعام؛ لأنهم لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم لاستقبال الحق، فعطَّلوا قواهم التي وهبهم الله إياها، وتلك الأنعام تسبِّح بحمد خالقها.

ويختتم المثل بهذه الخاتمة الموحية: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.. لأنه مروا بالحياة غافلين، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها، فكانوا حصب جهنم منذ كانوا [1]..

لقد حسبوا الحياة لهواً ولعباً، وعبثاً وبطراً، وظنوا أن لا معاد ولا مسؤولية، فعاثوا فساداً، ولم يحسبوا لله حساباً، وكانوا هم الأخسرين..

---

[1] ( ) . في ظلال القرآن ٣: ١٤٠١.

وثمت ملاحظة أخيرة تتصل بهذا الأثر التربوي، لا ينبغي أن يفوتنا التنبيه عليها، وهي أن الأسلوب التربوي يغلب التركيب الشكلي للمثل بصفة عامة.

وتلك ملاحظة ظاهرة، إذ إن الأصل في كتاب الله تعالى أنه كتاب هداية، كل ما جاء فيه يراد منه هداية البشر وتعريفهم بخالقهم، وتحقيقهم بعبوديتهم له سبحانه.

ولذا فإن تنوع أساليب الأمثال البيانية إنما هو تبع لتلون أسلوبها التربوي، على حسب مقتضى الحال ومناسباته، فكل مثل قرآني له أسلوبه التربوي الذي يلائم موضوعه وطبيعته، ويحقق أهدافه وآثاره وإيحاءاته.

ومن النماذج التي يمكننا أن نوضح بها ما نقول: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

فقد أتى في هذه الآية الكريمة مثل الغيبة بصورة ضمنية تربوية مؤثرة، تنفذ إلى أعماق القلوب، وتستجيش مشاعر الإيمان والتقوى، والمعاني الإنسانية الكريمة، ونهى عنها أولاً بقوله تعالى ضمن سلسلة من المنهيات المحظورات: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾، ثم يعرض مشهداً تتأذى له أشدُّ النفوس كثافة، وأقلُّ الأرواح حساسية. مشهد الأخ يأكل لحم أخيه.. ميتاً! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب!

ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظنٍّ وتجسُّس وغيبة، باستجاشة شعور التقوى، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئاً أن يبادر بالتوبة تطلعاً للرحمة: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [1]..

---

[1] في ظلال القرآن ٦: ٣٣٤٧.

وبعد، فتأمل صورة المثل كيف جاء؟ ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، إنها أتت بصورة استفهام، فيها إيحاءاتها الإنسانية، وتنفيرها وتأثيرها، ونفاذها إلى أعماق القلوب، ولم تأخذ صورة شكلية كما لو قلنا: (إن مثل من يغتاب أخيه كمن يأكل لحمه ميتاً)، إنها صورة بليغة، ولكن شتان بين الأسلوب التربوي البياني المعجز، وبين الأسلوب البشري المحدود..

والنماذج على هذا الأثر عديدة، نكتفي بما ذكرنا، ونخشى أن نكون قد أطلنا، وإن كان لهذا الأثر أهمية خاصة؛ لأن أبعاده وإيحاءاته لا تبلى جدّتها، بل تزيدها الأيام عمقاً ورسوخاً..

٤ـ والأثر الرابع من الآثار التربوية للأمثال من حيث المضمون: تعامل الأمثال القرآنية مع أحاسيس النفس ومشاعرها، ومكامن التأثير فيها بصورة دقيقة متوازنة، وأثر ذلك.

ففي النفس البشرية عناصر وجدانية مؤثرة، وعناصر إنسانية فعَّالة، على المربي الناجح أن يتعامل مع مزيج متكافئ، متوازن من هذه العناصر، وألا يغلب واحداً منها على الآخر بدون مصلحة وحكمة ظاهرة، وهي تنحصر في الأصول الثلاثة التالية:

ـ عواطف دافعة مرغِّبة، كالفرح والأمل والرغبة.

ـ عواطف رادعة مرهِّبة، كالخوف والإشفاق والخشية.

ـ عواطف ممجِّدة، كالإعجاب والحب والتقديس والثقة.

(فسَوْق المربي لتلميذه بعصا الرهبة وحدها، سبب واضح لهلاكه، ودفعه بعامل الفرح أو الرغبة وحده، سبب خطير لإفساده، وملء إحساسه بمشاعر التقديس والإعجاب والتمجيد وحدها، دون أن يستغلَّ ذلك لتوجيه يعتمد على الترغيب

والترهيب، لا يحرِّك فيه ساكناً، ولا يغيِّر منه اعوجاجاً، ويؤدي به إلى الغرور والزهوِّ بالنفس وجنون العظمة، والإخفاق في سبل الحياة..

وإنما يصلح سبيل التربية إذا نهض على مزيج معتدل من هذه المشاعر الثلاثة كلها.. وما فسدت المعالجات التربوية ولا تخلَّفت عن إعطاء ثمارها المرجوَّة على الأغلب إلا لفقد هذا المزيج المعتدل) (١)..

ولو عدنا إلى أمثال القرآن الكريم لوجدنا هذه العناصر الثلاثة بارزة فيها، على حسب موضوع كل مثل وما يناسبه منها، فهي الوسائل الأساسية لشد النفس البشـرية إلى المستوى الإنساني الرفيع الذي يريده الله تبارك وتعالى لها.

ونقف أمام بعض النماذج من الأمثال القرآنية لنرى هذه العناصر ودورها في شدِّ النفس البشرية، وأثرها فيها، يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١ـ ٢٦٦].

---

(١) . انظر: منهج تربوي فريد للدكتور البوطي ص ٨٢ـ ٨٥ بتصرف واختصار وزيادة.

ففي هذا النصِّ القرآني أربعة أمثال يضربها الله تعالى للإنفاق، على حسب تضاعف الأجر فيه، وطبيعته ونية فاعله، وتحقق بشروط خاصة..

وهي صور متقابلة لأصناف من الناس، يُبرز تقابل هذه الصور بوناً شاسعاً بين صنف وآخر، إيماناً وابتغاء لمثوبة الله، وتحققاً بآداب الإنفاق في سبيله.

وتكون تلك الصور بمجموعها إطاراً عاماً للنفس البشرية باستعداداتها، وتنوع منازعها، واختلاف دوافعها وأهدافها..

ونقف قليلاً لنرى معاني هذه الأمثال أولاً وترابطها ببعضها، ثم نضع أيدينا على درجة تعامل هذه الأمثال مع أحاسيس النفس وعواطفها، التي قدمنا الحديث عنها، وهي موضوع هذا الأثر التربوي الذي نحن بصدده.

ـ فالمثل الأول يضربه الله تعالى للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ولا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى، فإنه يتضاعف أجرهم عند الله سبحانه، كمثل من يبذر حبَّة في الأرض، فتنبت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، والله يضاعف لمن يشاء على حسب حال المنفق وإيمانه، وإخلاصه وإحسانه، ووقوع نفقته موقعها، وانشراح صدره بها، وسماحة نفسه، وثبات قلبه، والله سميع عليم.

ـ وبعدما يعرض الله تعالى هذا المثل عن المؤمنين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بغير منٍّ ولا أذى، يعرض مثلاً لمن ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، (إنه صاحب قلب صلد، لا يستشعر نداوة الإيمان وبشاشته، ولكنه يغطي صلادته بغشاء من الرياء، فمثله كمثل صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ، أي حجر لا خصب فيه ولا ليونة، يغطِّيه تراب خفيف يحجب صلادته عن العين، كما أن الرياء يحجب صلادة القلب الخالي من الإيمان..

﴿فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾.. وذهب المطر الغزير بالتراب القليل! فانكشف الحجر بجدبه وقساوته، ولم ينبت زرعة، ولم يثمر ثمرة.. كذلك القلب الذي أنفق ماله رئاء الناس، فلم يثمر خيراً ولم يعقب مثوبة!

ـ وفي مقابل هذا المشهد: قلب عامر بالإيمان، ندي ببشاشته، ينفق ماله ﴿ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ﴾.. وينفقه عن نية ثابتة في الخير، نابعة من الإيمان، عميقة الجذور في الضمير.. ومثل هذا القلب كمثل جنة خصبة عميقة التربة ـ في مقابل حفنة التراب على الصفوان ـ جنة تقوم على ربوة في مقابل الحجر الذي تقوم عليه حفنة التراب! فإذا جاء الوابل أحيا الجنة وأخصبها ونمَّاها، ﴿فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ﴾.. أحياها كما تحيي الصدقة قلب المؤمن فيزكو ويزداد صلة بالله، ويضاعف الله له ما يشاء. وكما تزكو حياة الجماعة المسلمة بالإنفاق وتصلح وتنمو: ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ﴾ غزير.. ﴿فَطَلٌّ﴾ من الرذاذ يكفي في التربة الخصبة ويكفي منه القليل! ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾..

والمثل الأخير يعرض صورة لنهاية المن وأذى، كيف يمحق آثار الصدقة محقاً، في وقت لا يملك صاحبها قوة ولا عوناً، ولا يستطيع لذلك المحق رداً، فمن ذا الذي يود أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات ـ وهي مثل للحسنات ـ ثم يرسل عليها المن والأذى يمحقها محقاً، كما يمحق الجنة الإعصار فيه نار؟ ومتى؟ في أشد ساعاته عجزاً عن إنقاذها، وحاجة إلى ظلها ونعمائها! ﴿وَأَصابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ، فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾.. من ذا الذي يودُّ هذا؟ ومن ذا الذي يفكر في ذلك المصير ثم لا يتقيه [1]؟

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

---

(1) . اقتبست تفسير الآيات من في ظلال القرآن ١: ٣٠٦ـ ٣١٠ باختصار وتصرف يناسب المقام.

ـ ففي هذا النصِّ القرآني نرى أربعة أمثال يضربها الله تبارك وتعالى عن الإنفاق، نوعه وطبيعته، وأحوال المنفقين، ودوافع إنفاقهم، وما إلى ذلك.

ـ فالمثل الأول يرغِّب بإنفاق الأموال في سبيل الله تعالى، ويمثل تضاعف الأجر والثواب بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، والله يضاعف لمن يشاء.. ويمجد المثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بغير منٍّ ولا أذى، ويمدحهم ويثني عليهم، ويبيِّن أن لهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا يحزنون، ويخلص المثل إلى أن القول الطيِّب والعفو والمغفرة خير من صدقة يتبعها أذى! والله غني حليم..

ونلاحظ في هذا المثل كيف امتزج الترغيب بالصدقة بالمدح والثناء للمنفقين في سبيل الله، المتحققين بآداب الإنفاق، ومعانيه الإيمانية الكريمة، وإعلاء شأنهم، ورفع مكانتهم.

ـ والمثل الثاني ينهى عن إبطال الصدقات بالمنِّ والأذى، كحال من ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فيحذر من عاقبة ذلك، ويبيِّن أن مثل ذلك كمثل الحجر الأملس الذي عليه طبقة رقيقة من التراب، فجاءه المطر الغزير فأزاله عنه، فذلك مثل من لم ينتفع بعمله، وضيَّع حسناته، بما كانوا عليه من دوافع فاسدة وحال منحرفة عن السلوك المستقيم، الذي عليه المؤمنون، من أصحاب المثل الأول.

ويأتي هذا المثل بين صورتين يثني على أصحابهما القرآن الكريم، ويرغِّب بهما، ويمجد دوافع أصحابهما، بينما تأتي هذه الصورة بينهما باهتة كالحة، لحال من ينفق ماله رئاء الناس منّاً وأذى، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر..

ـ وأما المثل الثالث: فهو صورة مقابلة للمثل الثاني مقابلة تامَّة في أجزائها وإيحاءاتها وآثارها.. إنها صورة للذين ينفقون أموالهم بنية صالحة، ودافع إيماني راسخ، غير مشوب بشائبة من الفساد، كيف تزكو أعمالهم، ويتضاعف أجرهم وحسناتهم،

كمثل جنة توفرت لها كل أسباب الخصب والنماء، فهي تؤتي أكلها مضاعفاً، يكفيها القليل من الماء لتعطي الكثير من الخير..

ولا شك أن تقابل الصورتين، وتنافر أجزائهما، يزيدهما تأثيراً: ترغيباً وترهيباً، ومدحاً وذماً، وتمجيداً وتنفيراً..

ـ والمثل الأخير يرسم صورة كئيبة كاسفة لحال من يفقد أعماله في وقت هو أشد حاجة إليها من أي وقت آخر، وهي توحي بظلال من الإشفاق والتنفير، والتحذير والترهيب، من أن تكون العاقبة كذلك، ويستخدم المثل أشد العواطف الإنسانية تأثيراً، ألا وهي عاطفة الأبوة.. في أشد الحالات ضعفاً، وهي حالة الكبر، وضعف الذرية، ليرسم صورة الفقد للمال وتلفه وهلاكه بإعصار فيه نار، في وقت شدة الحاجة، وخشية ضياع الذرية الضعفاء، فيفعل المثل بهذه الصورة الفريدة فعله في النفوس، مهما بلغت من غفلتها وعتوّها وبعدها عن إدراك الحقائق، واستغراقها في غيها..

ونخلص من دراسة هذه الأمثال إلى النتائج التالية:

ـ تعادل العواطف بعناصرها السالفة الذكر، وتمازجها وتقابلها وتوازنها في النص القرآني، بصورة دقيقة آسرة، تجعل المستمع مشدود المشاعر، مرهف الإحساس، شديد التأثر.

ـ أن القرآن الكريم يواجه أنواع النفوس، ويعالجها بما يناسبها، ترغيباً وترهيباً، وشدة وليناً، ومدحاً وذماً، وتمجيداً وتنفيراً.. (فهناك نفس متينة مكينة، ونفس هشة قميئة، وثالثة كافرة فاجرة، وأخرى مارقة ماجنة، ألوان من نفسيات متباينة متغايرة، لكل منها عند القرآن علاج خاصّ).

(مزاج من نصح، وأمشاج من هداية، ومقادير من أدوية، تقدَّم لكل نفس بمعيار وقدر، فما يصلح لإحداها قد لا تنتفع به أخرى، وما ترغب فيه نفس ترغب عنه أخرى، وما ينفع نفساً مطمئنة تعافه نفس جامحة شموس) [1].

وكل ذلك تعليم إلهي للهداة من عباد الله المهتدين أن يسلكوا سبيل الحكمة الإلهية، فيعالجوا النفوس بما يناسبها، ويخاطبوها بما يأسرها..

وأثراً عن ذلك: فإن النفس البشرية تنمو في ظلال القرآن، وإيحاءاته وتأثيراته، وتعامله الدقيق مع عواطفها ومشاعرها ومكامن التأثير فيها، تنمو نمواً متوازناً، يحوطها من أطرافها، ويسير بها نحو الغاية من وجودها، سيراً رفيقاً، يحقِّق لها كرامتها الإنسانية وسموّها الروحي العالي، في مثالية واقعية، تعامل الواقع البشري، وتسمو به، ولا تتنكر له..

ـ وإن هذا النمو المتوازن يملي على الإنسان سلوكاً إيجابياً بنَّاءً تجاه المواقف المختلفة، لا يجنح إلى سلبية قاتلة، ولا يميل إلى غلوٍّ في جانب على حساب جانب آخر..

ـ وأختم الحديث عن هذا الأثر بكلمة جامعة للإمام عبد القاهر الجرجاني:

(واعلم أنّ مما اتفق العقلاء عليه، أن «التمثيل» إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النّفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً، وقسر الطّباع على أن تعطيها محبّة وشغفاً.

---

[1] ـ من: الأمثال في القرآن، للدكتور محمود بن الشريف ص ١١ و١٢.

فإن كان مدحاً، كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهزّ للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بعزّ المواهب والمنائح، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر.

وإن كان ذمّاً، كان مسُّه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشده، وحدُّه أحدّ.

وإن كان حجاباً، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر.

وإن كان افتخاراً، كان شأوه أمدّ، وشرفه أجدّ، ولسانه ألدّ.

وإن كان اعتذاراً، كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسّخائم أسلّ، ولغرب الغضب أفلّ، وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث.

وإن كان وعظاً، كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزّجر، وأجدر بأن يجلّي الغياية، ويبصّر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل) [1].

٥ـ والأثر الخامس من الآثار التربوية لضرب الأمثال من حيث المضمون: التصوير الفني للأمثال، وأثره النفسي والتربوي.

لقد سبق لنا في مقدمة هذا المبحث، الحديث عن صلة الأمثال القرآنية بالتصوير الفني، وأرجأنا الحديث عن الأثر النفسي والتربوي للتصوير الفني للأمثال، إلى مكانه من هذه الدراسة.

وإن لأثر التصوير الفني صلة وثيقة بالأثرين الثالث والرابع، اللذين تحدثنا عنهما آنفاً، لما أنهما يتناولان بصورة أساسية مقصودة أحاسيس النفس ومشاعرها، وكذلك التصوير الفني، فإنه يتعامل مع المشاعر والعواطف بصورة أساسية.

---

[1] - أسرار البلاغة للجرجاني.

وخير من يتناول التصوير الفني بالدراسة والتحليل، وخير من حلَّق في آفاقه لهو الكاتب القدير والأديب الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى، فقد تملَّك عليه التصوير الفني ذوقه الأدبي، فترك من الدراسة في ذلك والأثر ما لا يدع بعده مطمعاً لباحث، أو زيادة لمستزيد، اللّٰهُمَّ إلا أن يكون التفصيل والتطبيق..

وقد تناولنا في الأثر السابق أربعة أمثال بالدراسة بما يلائم ذلك الأثر، ونتأمل هذه الأمثال نفسها الآن من زاوية التصوير الفني، وأثره النفسي والتربوي، ونترك الحديث لبيان سيد قطب رحمه الله تعالى، يقول عن المثل الأول:

إن المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة! أما المشهد الحي الذي يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل وأكثر استجاشة للمشاعر، وتأثيراً في الضمائر.. إنه مشهد الحياة النامية، مشهد الطبيعة الحية، مشهد الزرعة الواهبة، ثم مشهد العجيبة في عالم النبات: العود الذي يحمل سبع سنابل. والسنبلة التي تحوي مائة حبة!

وفي موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء.. إنه لا يعطي بل يأخذ، وإنه لا ينقص بل يزاد.. وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها، تضاعف المشاعر التي استجاشها مشهد الزرع والحصيلة.. إن الله يضاعف لمن يشاء.. يضاعف بلا عدة ولا حساب.. يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده، ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها)..

ويقول في تصوير المثل الثاني والثالث: (عند ما يصل التأثر الوجداني غايته بهذا وذاك، يتوجه بالخطاب إلى الذين آمنوا ألا يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى. ويرسم لهم مشهدا عجيباً، أو مشهدين عجيبين يتسقان مع المشهد الأول. مشهد الزرع والنماء. ويصوران طبيعة الإنفاق الخالص لله، والإنفاق المشوب بالمن والأذى. على طريقة

التصوير الفني في القرآن، التي تعرض المعنى صورة، والأثر حركة، والحالة مشهداً شاخصاً للخيال).

ثم يقول: (وإذا كان القلب الصلد وعليه ستار من الرياء يمثِّله صفوان صلد عليه غشاء من التراب، فالقلب المؤمن تمثِّله جنة.. جنة خصبة عميقة التربة في مقابل حفنة التراب على الصفوان.. جنة تقوم على ربوة في مقابل الحجر الذي تقوم عليه حفنة التراب! ليكون المنظر متناسق الأشكال!

إنه المشهد الكامل، المتقابل المناظر، المنسّق الجزئيات، المعروض بطريقة معجزة التناسق والأداء، الممثِّل بمناظره الشاخصة لكل خالجة في القلب وكل خاطرة، المصور للمشاعر والوجدانات بما يقابلها من الحالات والمحسوسات، الموحي للقلب باختيار الطريق في يسر عجيب..

ولما كان المشهد مجالاً للبصر والبصيرة من جانب، ومردّ الأمر فيه كذلك إلى رؤية الله ومعرفته بما وراء الظواهر، جاء التعقيب لمسة للقلوب: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾)..

ويقول عن المثل الرابع، وهو قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾: (وهكذا يقوم المشهد الحي الشاخص، بما فيه أول الأمر من رضى ورفه ومتعة، وما فيه من نضارة وروح وجمال.. ثم بما يعصف به عصفاً من إعصار فيه نار.. يقوم هذا المشهد العجيب بالإيحاء الشعوري الرعيب الذي لا يدع مجالاً للتردد في الاختيار، قبل أن تذهب فرصة الاختيار، وقبل أن يصيب الجنة الوارفة الظليلة المثمرة إعصار فيه نار!

وبعد فإن التناسق الدقيق الجميل الملحوظ في تركيب كل مشهد على حدة، وفي طريقة عرضه وتنسيقه.. هذا التناسق لا يقف عند المشاهد فرادى، بل إنه ليمد رواقه فيشمل المشاهد متجمعة من بدئها في هذا الدرس إلى منتهاها..

إنها جميعاً تعرض في محيط متجانس. محيط زراعي! حبة أنبتت سبع سنابل. صفوان عليه تراب فأصابه وابل. جنة بربوة فآتت أكلها ضعفين. جنة من نخيل وأعناب.. حتى الوابل والطل والإعصار التي تكمِّل محيط الزراعة لم يخلُ منها محيط العرض الفنّي المثير..

وهي الحقيقة الكبيرة وراء العرض الفني المثير.. حقيقة الصلة بين النفس البشرية والتربة الأرضية.. حقيقة الأصل الواحد، وحقيقة الطبيعة الواحدة، وحقيقة الحياة النابتة في النفس وفي التربة على السواء. وحقيقة المحق الذي يصيب هذه الحياة في النفس وفي التربة على السواء.

إنه القرآن.. كلمة الحق الجميلة.. من لدن حكيم خبير [1].

وبعد، فلا شك أن المثل عندما يرسم أمام النفس بطريقة التصوير الفني في القرآن، فيقدِّم لوحة فنية: المعنى صورة، والأثر حركة، والحالة مشهد شاخص للخيال.. إنما يتوخَّى من وراء ذلك أن يترك أثراً نفسياً وتربوياً، بل وأن يبلغ أعماق النفس البشرية، ليفعل فعله في التأثير والتغيير، إذ إن معالجة القلوب وأعمالها من أصعب أنواع المعالجات التربوية.. إنها تحتاج إلى تغلغل ماهر حاذق إلى حنايا النفس، وخطرات القلب، ودقائق الأحوال والتقلُّبات، لتلمس وتعرف، وتؤتى من حيث يفلح فيها التأثير، وينفع الخطاب والتذكير.

ويمكننا أن نلمس آثار التصوير الفني في هذه الأمثال، التي أتينا بكلام سيد قطب رحمه الله تعالى في النقاط التالية التي نستوحيها من كلامه نفسه:

١ـ استجاشة المشاعر، ورفع وتيرة الإحساس النفسي إلى أعلى مستوى، لتغرس الحقائق التي يغفل عنها كثير من الناس، ومن هذه الحقائق هنا: أن الإنفاق هو نماء

---

[1] انظر: في ظلال القرآن ١: ٣٠٦ـ ٣١٠ مقتطفات على حسب المناسب للموضوع.

وزيادة، وليس بنقص ولا ضياع للمال، وأن المن والأذى في الإنفاق هو محق وإتلاف، وتضييع وإفساد للعمل.

٢ـ الدفع القوي للقلب، باختيار الطريق في يسر عجيب، والإيحاء الشعوري الرعيب، الذي لا يدع مجالاً للتردد في الاختيار قبل أن تذهب فرصة الاختيار، وقبل أن يصيب الجنة الوارفة الظليلة المثمرة إعصار فيه نار.

ومثل آخر نقف عند التصوير الفني فيه لنرى أثره النفسي والتربوي، إنه قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ـ ١٧٧].

وقد سبق لنا أن وقفنا عند هذا المثل، وقفة من زاوية، ونقف عنده الآن من زاوية التصوير الفني، ومرة أخرى نترك التصوير الفني لقلم الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى: (إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات.

إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع.. ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه.. أوليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟.. ها هو ذا ينسلخ من آيات الله ويتجرد من الغطاء الواقي، والدرع الحامي وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ويهبط من الأفق المشرق

فيلتصق بالطين المعتم فيصبح غرضاً للشيطان، لا يقيه منه واقٍ، ولا يحميه منه حام، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه..

ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد.. إذا نحن بهذا المخلوق لاصقاً بالأرض، ملوثاً بالطين.. ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب، يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد.. كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر.. فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها.. مشهد اللهاث الذي لا ينقطع.. سمع التعليق المرهوب الموحي على المشهد كله: ﴿ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ﴾..

ذلك مثلهم! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم، ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخاً.. ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان، هابطون عن مكان «الإنسان» إلى مكان الحيوان.. مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين.. وكان لهم من الإيمان جناح يرفون به إلى عليين وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين! ﴿ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ﴾!

وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟ من يعريها من الغطاء الواقي والدرع الحامي، ويدعها غرضا للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق، اللاهث لهاث الكلب أبداً!!

وهل يبلغ قول قائل في وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب الفريد إلا هذا القرآن العجيب الفريد)[1]!!

فأيُّ تأثير نفسي يتركه هذا التصوير الفني للمثل؟! إنه يريك الإنسان المتجرد عن الهدى، المنسلخ عن حقيقة العلم بعد أن آتاه الله إياه، يريك إياه إنساناً هابطاً غاوياً، يلازمه الشيطان ويسيطر عليه، يشبه أخسّ الحيوانات نفساً وأخبث المخلوقات حالاً وهيئة، فهل يمكن بعد ذلك أن تظن في مثل هذا المنسلخ خيراً؟ أو تؤثر سلوكه وتتبع خطاه، أو تنظر إليه نظرة إعجاب وإكبار وهو هكذا في نظر الله تعالى؟! مهما بلغ في مقاييس البشر من منزلة ورئاسة ومظاهر برَّاقة، وشارات كاذبة، وألقاب فارغة!

أجل.. إنه باختصار، كلب يلهث.. ويلهث.. وكفى بذلك تنفيراً للقلوب، واشمئزازاً للنفوس أن تسلك مسلكه أو تكون من صنفه..

٦ـ والأثر السادس من الآثار التربوية لضرب الأمثال من حيث المضمون:

واقعية الأمثال القرآنية، واتصالها بعناصر الطبيعة، واستمدادها منها، وبعدها عن التهويلات والتضخيمات الخيالية، وأثر ذلك النفسي والتربوي.

فالأمثال القرآنية أمثال واقعية، بمعنى أنها صور منتزعة من الواقع الإنساني، وما فيه وما حوله، وهي ماسَّة بحياة الإنسان لاصقة بها، ليست مما يحمل صفة الندرة، ندرة الوجود، أو ندرة الوقوع، أو الانتشار في نطاق ضيق، أو بيئة محدودة..

فقد ضرب القرآن الكريم الأمثال بالذباب والبعوض والعنكبوت والكلب والحمار، كما ضرب المثل بالأنعام، وهي شاملة لأنواع عديدة، وكذلك ضرب المثل بالزرع وبالحبة، وهي شاملة لكل زرع وكل أنواع الحبوب..

---

(1) . في ظلال القرآن ٣: ١٣٩٦ـ ١٣٩٧.

وردَّ الله تبارك وتعالى على من استنكر ضرب الأمثال وأن ذلك غير لائق به سبحانه، وبيَّن أنها أمثال حقٌّ، يدرك حقائقها المؤمنون العاقلون الفاقهون عن الله تعالى، وينكرها الكافرون الجاحدون الذين لا يفقهون، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وهذه الأمثال القرآنية كلها قريبة من واقع الإنسان متصلة به، ماسَّة بحياته، يتجلَّى أثرها النفسي والتربوي في الجوانب التالية:

١ـ أن ينمو الإنسان نمواً واقعياً، يلاحظ الواقع، ويتفاعل معه، ويعتبر به.

٢ـ وأن يكون نموه سليماً متوازناً، لا تغلب فيه النزعة العاطفية المحاكمة العقلية، ولا يجنح به الوهم عن فقه الحقائق، وتحليلها وتركيبها، والاتزان في استنباط الأحكام وإصدارها.

٣ـ أن ترتبط في نفسه وإحساسه صور الطبيعة بالحقائق الإيمانية والمعاني العقلية، بصورة مستمرة متكررة مؤثِّرة.

أو بعبارة أخرى عامة: أن ترتبط في نفسه صور الطبيعة بالأغراض الدينية التي ضربت لها الأمثال، فلا يرى هذه الصور إلا ويذكر تلك الأمثال، فيتفاعل معها وتمتزج أحاسيسه بها، وبذلك يرتبط كتاب الكون الخالد المقروء بكتاب الكون المشهود، ويتصل السمع بالبصر، والعقل بالقلب، في امتزاج لا يعرف الانفصام أبداً.

ويترتب على هذه الآثار:

ـ استمرار تفاعل النفس البشرية مع القرآن الكريم، منذ الصغر وفي جميع مراحل الحياة وحتى الشيخوخة، وأخذ الإنسان من القرآن في كل مرحلة من نموّه على حسب مداركه واستعداده.

ويكاد يكون كل إنسان نشأ على تربية القرآن الكريم منذ الصغر أن يكون له تجربة متميزة مع القرآن من هذا النوع، تتناسب مع واقعه واستعداده والمؤثرات من حوله.. وقد حدَّث سيد قطب رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه: (التصوير الفني في القرآن) عن تجربته منذ الصغر، التي نمت مع مداركه، وتطورت حتى كان منها اكتشاف التصوير الفني في القرآن..

وهذا يؤكد لنا أهمية الأدب النبوي، الذي دعا النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى الأخذ به في تربية الناشئة، والتزمته هذه الأمة عصوراً متطاولة إلى أن عزفت عنه في هذا العصر، فما أفلحت في دنيا ولا في دين.. وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، مع أنبيائه وأصفيائه) ([1]).

ـ عمق التأثير القرآني، وتغلغله في أعماق النفس البشرية، وانطلاقها في مجالات الفكر والسلوك من تأثيره وإيحائه، وقد حدَّثني شيخ متقدم في السنِّ أنه كان طفلاً ناشئاً، فلبس حذاء جديداً، وأخذ يعدو على الأرض، ويقفز فرحاً به، ويخبط برجليه الأرض بكل قوته، فمرَّ بامرأة عجوز، فارتعدت منه وقالت له: ما هذا؟ حسبت أن بغلاً أو حماراً يمر بجانبي!! يا بني، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير، فقال: فتضاءلت إلي نفسي، ولم أعد إلى مثلها أبداً، وكنت كلما قرأت: إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ لقمان: ١٩

([1]) ـ رواه أبو نصر الشيرازي في فوائده الحديثية، والديلمي في مسند الفردوس، وابن النجار عن علي رضي الله عنه، ورمز السيوطي في الجامع الصغير لضعفه، ولكن معناه صحيح، وحقائقه من معين الوحي والله أعلم، راجع: فيض القدير١: ٢٢٦.

تذكرت موقفي وكلامها.. فانظر إلى عظمة هذه المرأة العجوز وهي تؤدب هذا الطفل بالقرآن، وحسن استنباطها منه، وانظر إلى عمق التأثير القرآني في نفسه..

وأما ضابط التهويلات والتضخيمات الخيالية التي تبتعد عنها الموضوعات القرآنية عامة، والأمثال خاصة، أنها تلك التي تبعد عن الحق وتتجاوزه، ويتعدى تأثيرها الجوانب التربوية السليمة إلى آثار فاسدة، وأعراض سلبية هدامة..

وأثر بُعد الأمثال القرآنية عن التهويلات والتضخيمات الخيالية يتجلى في النقاط التالية:

١ـ تأثيرها في مستويات الناس كافة، فالأمثال القرآنية بما أنها مقتصدة في التجسيم والتخييل تقدّم ذلك بصورة تتناسب مع الغرض الديني، بل على قدره لا تتعداه، وهي في الوقت نفسه تحقّق أبلغ تصوير فني وأصدقه وأمتعه.. بما أنها كذلك فهي لا تتناول فئة معيّنة ذات سن معيّن من الناس، كقصص الأطفال التي يضعها بعض الكتاب، فلا يرغب بها الكبار، ولو قرؤوها لرأوها شيئاً تافهاً لا ينال اهتمامهم، ولا يتملك مشاعرهم، فهي في نظرهم ضرب من الأوهام الكاذبة، حتى إن الصغار الذين يتأثرون بهذه القصص وهم في سنٍّ معينة عندما يكبرون يزهدون بها ولا يفكرون في قراءتها، ولا يبقى لها أي تأثير يذكر في نظرهم، وكثيراً ما يستسخفونها لأنها تسرف في الخيال وتبالغ في التهويلات، ولا تلائم جميع المستويات..

وإن للإسراف في الخيال، والمبالغة في التهويلات آثاراً سلبية خطيرة على نفس الطفل أو الناشئ، قد لا يقدرها كثير ممن يتصدون للتربية، ويعاملون الناشئة بصورة مباشرة في التربية والتعليم، أو بصورة غير مباشرة عن طريق القصص والمسرحيات، فهي كثيراً ما تفسد خيال الطفل، وتزرع في نفسه الجبن والخوف، وتجعله تحت سيطرة الأوهام والأساطير، وتترك آثاراً سلبية عديدة يظل يعاني منها في شخصيته وسلوكه..

٢- ربط السامع أو المتلقي بالغرض الدنيوي من المثل بصورة وثيقة، أما عندما يكون المثل قائماً على التضخيم والتهويل، فإن السامع يضيع وراء الصورة المضخمة، ويسرح مع الخيال المحلق، ويشرد عن الهدف الديني والغرض التربوي الذي سيق المثل لأجله..

ولذا فإننا نلاحظ أن الأمثال القرآنية دقيقة دقة عجيبة، مقتصدة في اللفظ، قليلة الكلمات، عميقة التأثير، ضخمة الإيحاءات، غزيرة المعاني..

فتأمل الأمثال القرآنية ولاحظ الاقتصاد في اللفظ والوصف، والبعد عن التضخيم والتهويل، مع عمق التأثير، وقوة الإيحاء، وغزارة المعنى.

يقول تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

ويقول سبحانه: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وهو مثل يتضمن مثلين..

ويقول عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وجميع هذه الأمثال أخذناها بغير تحديد لموضوعات معينة، ولا ملاحظة لأسلوب محدد.. وكلها تؤكد الآثار النفسية والتربوية التي أسلفنا الحديث عنها.

ـ وننظر من زاوية أخرى إلى هذا الجانب الذي نتحدث عنه، فنرى أنه من دلائل القرآن الكريم على أنه وحي الله العزيز الحكيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؛ لأنه مخالف لطبيعة البشر في حديثهم وأسلوبهم، وقصصهم وأمثالهم، إذ إن حديث البشر تظهر فيه الانفعالات البشرية والتهويلات، وتبرز فيه جوانب الضعف البشري والمحدودية بصورة لا يمكن أن تستر أو تلبس..

أما كلام الله سبحانه فيكسوه جلال الربوبية، وتبرز فيه هيبة الحق وسطوته وقوته، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ـ ٢٨].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان: ٣٣].

٧ـ والأثر السابع من الآثار التربوية لضرب الأمثال من حيث المضمون: إيقاظ النفس من غفلة الركون إلى الدنيا، واتباع الأهواء والشهوات، والافتتان بما عليه أهلها من الزخارف والمتاع، وبيان سنة الله فيهم، وعاقبة غرورهم وطغيانهم، ومكرهم وعتوهم..

فالدنيا محببة إلى نفس الإنسان، مزينة مزخرفة، فيها كل مظاهر الفتنة ووسائل الإغراء، والإنسان يعيش فيها ويملأ قلبه الأمل والطموح، ويدفعه إلى شهواتها ومظاهر زينتها، حب البقاء، والرغبة في التفاخر والتكاثر، يقول سبحانه: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١ـ ٢]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

والإسلام لم ينكر أصل هذه العواطف نحو الدنيا، ولم يدعُ إلى قطع مادتها واستئصال جرثومتها، كيف وهي من فطرة الله التي فطر الناس عليها، بل اعترف بها،

ولكن وجَّهها الوجهة الصحيحة، وردَّها إلى اعتدالها وتوازنها، فبعدما عددت الآية السابقة أهم مظاهر زينة الحياة الدنيا المحببة إلى نفوس الناس بحكم الفطرة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ﴾، ثم بيَّن الحق سبحانه صورة المآب الحسن: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]، فوجه الناس إلى الدار الآخرة، وربط قلوبهم بها، ووجه هممهم إلى خلودها ومنازلها، ونعيمها الذي لا تشوبه شائبة، ولا ينغصه مكدر، يحفّه رضوان الله الذي هو أعلى أنواع السعادة والنعيم.

وبياناً لحقيقة الدنيا وتفاهتها وزهادتها، وسرعة انقضائها وزوالها، وتقلبها بأهلها، وتغير أحوال الإنسان فيها، فقد ضرب الله تعالى الأمثال عنها ليدرك الناس حقيقتها، ويعرفوا مآلها ومصيرها.. وخاصة أن الناس يعيشون فيها، وتخلب عقولهم زينتها، وتبهر أنظارهم متعتها وزخارفها..

وقد انقسم الناس حسب موقفهم من الدنيا إلى فريقين:

الفريق الأول: قوم افتتنت قلوبهم بها، فهاموا بها حباً، وتنافسوا فيها جمعاً ونهباً، لم يدركوا للحياة معنى سوى التنافس في لذاتها، والتكاثر بزينتها وبهارجها، والتكالب على حطامها الفاني، فكفروا بالآخرة، وصدتهم الأهواء والشهوات عن الإيمان بها والتصديق بحقائقها، والاستعداد لها، والحرص على نعيمها الدائم، وعيشها الخالد، ورضوانها الأكبر: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

والفريق الثاني: قوم عرفوا حقيقة الدنيا، وأبصروا مآلها، وأن ما فيها من زينة ومتاع وزخرف وبهارج زائل فانٍ، تنغصه الآلام، وتقطعه المصائب والأحزان، فآمنوا أنها دار ابتلاء وممر، ومرحلة من مراحل الحياة لا تنتهي بالموت، وإنما الموت هو مرحلة

انتقال إلى الدار الآخرة، فشدت أبصارهم إليها، وتعلقت قلوبهم بها، فلم تشغلهم الدنيا عن الآخرة، ولم يصدهم ما هم فيه، عن السعي إلى النعيم الخالد والرضوان الدائم..

ولكن هؤلاء يخشى عليهم من كثرة رؤية زينة الحياة الدنيا، ومظاهرها الفاتنة، أن ينسوا الآخرة ويغفلوا عنها وهم لا يرونها بأبصارهم ولا يشهدونها، وأن يغفلوا عن حقيقة الدنيا فتوقعهم في شباكها، وكم قادت الغفلة صاحبها خطوة خطوة حتى صدته عن الآخرة وحجبته عنها.

وقد أدب الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وكل مؤمن من هذه الأمة أن لا تمتد عيناه إلى زهرة الحياة الدنيا وزينتها، فإنها ابتلاء وفتنة، وأن يعلق القلب دائماً بالله سبحانه، وما عنده من النعيم الخالد والرضوان المقيم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

ـ ولقد كان ضرب الأمثال في القرآن الكريم عن الدنيا وحقيقتها لتعميق هذه الحقائق في قلوب المؤمنين، حتى لا تغرهم المظاهر، ولا تفتنهم الزينة البراقة الفانية الذابلة، ولإيقاظ النفس البشرية عموماً من غفلتها وركونها إلى الحياة الدنيا، واطمئنانها بها، ولانتشالها من التكالب على الأهواء والشهوات، ونسيان الآخرة والمصير المنتظر..

فمما ضربه القرآن الكريم من الأمثال للدنيا وحقيقتها، ما جاء في الآيات التالية:

١ـ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

٢ـ ومنها قوله سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً. المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٥ـ ٤٦].

٣ـ ومنها قوله تبارك وتعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ. سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٠ـ ٢١].

ونقف عند هذه الأمثال الثلاثة ـ وهي كلها متشابهة من حيث الممثل به ـ نقف عندها لنستنبط الحقائق التالية:

١ـ بيان تفاهة الدنيا وسرعة انقضائها وزوالها، وأن ذلك يكون بصورة مباغتة مفاجئة: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾.

٢ـ مقارنة الدنيا الفانية الزائلة بالآخرة الخالدة، وما فيها من الأجر والمثوبة.

٣ـ حث الهمم، وحفز العزائم على تعليق القلوب بالآخرة، والمسابقة إلى مغفرة الله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

ثم نقف وقفة أخرى عند هذه الأمثال، وما فيها من لمسات تصويرية مؤثرة، توضّح لنا مدى تأثيرها التربوي، وإيقاظها للنفس البشرية من سكرة الاستغراق في الدنيا واللهاث وراءها، والاغترار بزخرفها.

١ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٤ـ ٢٥].

(وهذا هو الماء ينزل من السماء، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به، فيمرع ويزدهر، وها هي ذي الأرض كأنها عروس مجلوّة، تتزيّن لعرس وتتبرّج، وأهلها مزهوون بها، يظنون أنها بجهدهم ازدهرت، وبإرادتهم تزينت، وأنهم أصحاب الأمر فيها، لا يغيّرها عليهم مغيّر، ولا ينازعهم فيها منازع..

وفي وسط هذا الخصب المرع، وفي نشوة هذا الفرح الملعلع، وفي غمرة هذا الاطمئنان الواثق، ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾.

في ومضة وفي جملة، وفي خطفة، وذلك مقصود في التعبير بعد الإطالة في عرض مشهد الخصب والزينة والاطمئنان.

ليدرك الناس حقيقة الدنيا، وليتصوروا خيبة فقدها لمن تعلقت قلوبهم بها، وهي تذوب بين أيديهم في لحظة، وتذوي في خطفة.

وهذه هي الدنيا التي يستغرق فيها بعض الناس، ويضيّعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع، هذه هي لا أمن فيها ولا اطمئنان، ولا ثبات فيها، ولا استقرار، ولا يملك الناس من أمرهم شيئاً إلا بمقدار.. هذه هي.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

فيا لبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس في لحظة، وقد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هي حصيد كأن لم تغن بالأمس.. ودار السلام التي

يدعو إليها الله، ويهدي من يشاء إلى الصراط المؤدي لها.. حينما تنفتح بصيرته، ويتطلع إلى دار السلام) [1].

٢ـ ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً. المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٥ـ ٤٦].

(هذا المشهد يعرض قصيراً خاطفاً ليلقي في النفس ظل الفناء والزوال. فالماء ينزل من السماء فلا يجري ولا يسيل ولكن يختلط به نبات الأرض. والنبات لا ينمو ولا ينضج، ولكنه يصبح هشيماً تذروه الرياح. وما بين ثلاث جمل قصار، ينتهي شريط الحياة.

ولقد استخدم النسق اللفظي في تقصير عرض المشاهد. بالتعقيب الذي تدل عليه الفاء: ﴿كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ﴾ فما أقصرها حياة! وما أهونها حياة [2]!

---

[1] ( ) ـ في ظلال القرآن ٣: ١٧٧٥.

[2] ( ) ـ قارن بين هذه الصورة والصّورة التي عرضها المثل الأول، لتشهد الإعجاز العجيب لهذا القرآن، فالصورة الأولى اقتضت أن تعرض الحياة بصورة مفصّلة متطاولة، توحي بالتطاول جملها المفصلة المليئة بالمشاهد، لتشير إلى اغترار الناس بها وركونهم إليها، ثم مصيرها وهي حصيد كأن لم تغن بالأمس، هي قد عرضت أولاً من زاوية المخدوعين بها الراكنين إليها، الذين يحسبونها داراً للخلد ومقاماً لا ينقطع.

واقتضت هذه الصورة أن تعرض الحياة على حقيقتها، كظل زائل وسراب خادع، تبدأ فتنتهي، فلا يذكر كيف بدأت إلا وهي تودع وتنصرم.. كحلم النائم، أو كساعة من نهار.. إنها تعرض هنا من زاوية الحق ومن مشهد الوجود المطلق، لا التصور المحدود المتمني الفاني.. تعرض كما خلقها الله وكما هي في الحقيقة، فتأمل إعجاز التعبير والتصوير، والتعليم والتأثير في هذين المثلين، اللذين قد يظن بعض الظانين أن فيهما تكراراً، وما هو بذلك، ولكنه الكتاب الذي لا تفنى عجائبه تنزيل من حكيم حميد.

وبعد أن يلقي مشهد الحياة الذاهبة ظله في النفس يقرر السياق بميزان العقيدة قيم الحياة التي يتعبدها الناس في الأرض، والقيم الباقية التي تستحق الاهتمام: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً، وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾.. المال والبنون زينة الحياة والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات، ولكنه يعطيهما القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد.. إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة. فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسهما في الحياة. إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات.

وإذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين فإن الباقيات الصالحات خير ثوابا وخير أملاً.. عندما تتعلق بها القلوب، ويناط بها الرجاء، ويرتقب المؤمنون نتاجها وثمارها يوم الجزاء) ([1]).

٣ـ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

إن (الحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازينها، تبدو في العين وفي الحس أمراً عظيماً هائلاً، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئاً زهيداً تافهاً.. وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة! لعب ولهو، وزينة، وتفاخر وتكاثر.. هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل..

ثم يمضي يضرب لها مثلاً مصوراً على طريقة القرآن المبدعة.. «كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ».. والكفار هنا هم الزراع، فالكافر في اللغة هو الزارع، يكفر أي يحجب

([1]) . في ظلال القرآن ٤: ٢٢٧١ـ ٢٢٧٢.

الحبة ويغطيها في التراب، ولكن اختياره هنا فيه تورية وإلماع إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا! ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾ للحصاد.. فهو موقوت الأجل، ينتهي عاجلاً، ويبلغ أجله قريباً ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً﴾.. وينتهي شريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة المأخوذة من مشاهدات البشر المألوفة.. ينتهي بمشهد الحطام!

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن، شأن يستحق أن يحسب حسابه، وينظر إليه، ويستعد له: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ﴾.. فهي لا تنتهي في لمحة كما تنتهي الحياة الدنيا، وهي لا تنتهي إلى حطام كذلك النبات البالغ أجله.. إنها حساب وجزاء.. ودوام.. يستحق الاهتمام!

﴿وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾.. فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع، كما أنه يلهي وينسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع..

وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة، حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض، ولا إهمال عمارتها وخلافتها التي ناطها بهذا الكائن البشري، إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض.. هذا الاستعلاء الذي كان المخاطبون بهذه السورة في حاجة إليه ليحققوا إيمانهم.. والذي يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة، ليحقق عقيدته ولو اقتضى تحقيقها أن يضحي بهذه الحياة الدنيا جميعاً.

ومن ثم يدعوهم إلى السباق في ميدان السباق الحقيقي، للغاية التي تستحق السباق. الغاية التي تنتهي إليها مصائرهم، والتي تلازمهم بعد ذلك في عالم البقاء: ﴿سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ، أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ. ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ. وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.. فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق،

وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار! إنما السباق إلى ذلك الأفق، وإلى ذلك الهدف، وإلى ذلك الملك العريض: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالأَرْضِ﴾..

وذلك الملك العريض في الجنة يبلغه كل من أراد، ويسابق إليه كل من يشاء. وعربونه: الإيمان بالله ورسله. ﴿ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ﴾.. وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ العَظِيمِ﴾.. وفضل الله غير محجوز ولا محجور.. فهو مباح متاح للراغبين والسابقين. وفي هذا فليتسابق المتسابقون، لا في رقعة الأرض المحدودة الأجل، المحدودة الأركان) [1]!

بقي أن نعلم أنه لا ضرورة لتأثير هذه الأمثال ـ عن طبيعة الحياة الدنيا وفنائها، وتقلبها بأهلها وزوالها، أن تكون موجهة إلى المؤمنين المتقين، وإنما هذه الأمثال يمكن أن تؤثر في نفس كل عاقل يريد أن يتدبر، ويريد أن يعي، ويريد أن يفقه حقيقة الوجود.. ومنتهى الرحلة في هذه الحياة.. لأن هذه الأمثال تعرض حقائق محسوسة، وتصوّر واقعاً يعيشه الناس على اختلاف عقائدهم وتباعد تصوراتهم، ثم تقدم التفسير الصحيح لهذا الواقع الذي يربط الدنيا بالآخرة، ويعرّف الإنسان بغاية وجوده، وحقيق المهمة التي خلق من أجلها، فكان في أحسن تقويم يحمل أشرف رسالة في الوجود وأعظم أمانة أشفقت السموات والأرض والجبال عن حملها..

وبعد؛ فهذا هو الشطر الأول من هذا الأثر التربوي، أما الشطر الآخر فهو يتمثل في الترهيب من حال المفتتنين بالحياة الدنيا، الذين اغتروا بما أمدهم الله تبارك وتعالى به من أسباب القوة ومتع الحياة وزينتها ومظاهرها وزخارفها، فركنوا إلى الدنيا وأنكروا الآخرة، وتجبروا في الأرض، وكان منهم البغي بغير الحق، والعدوان على الناس، فحلّت فيهم نقمة الله تعالى، وأنزل بهم بأسه وجعلهم عبرة للمعتبرين وسلفاً للآخرين، ومثلاً وموعظة للمتقين، كما قال تعالى في مناسبة إهلاك فرعون وقومه بعدما لم تفلح فيهم

---

[1] . في ظلال القرآن ٦: ٣٤٩١ـ ٣٤٩٢ مع حذف بعض الفقرات التي تخرج عن موضوع البحث.

كل حجة، ولم ينفعهم كل برهان: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف ٥٥ـ ٥٦].

ـ ونقف عند مثلين رائعين يقصهما الله تعالى علينا، فيهما أعظم العبرة، وأبلغ تأثير وأوقع موعظة، إنهما مثلان وقصتان ماضيتان، يحولهما التصوير القرآني المعجز إلى صورة واقعية، يشهدها ببصيرته كل مؤمن، عن عاقبة المغرورين المفتونين الذين يستحبّون الحياة الدنيا على الآخرة، ويبغون في الأرض بغير الحق، ويفرحون بالحياة الدنيا ويطمئنون بها.

١ـ المثل الأول: وهو مثل صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن (وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبر التي تسيطر على أقدار الناس والحياة.

ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه. وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره) [1].

ونقف مع النصّ القرآني وهو يصور لنا طغيان الإنسان المغرور المفتون، وموقف المؤمن الواثق بربه، الموحّد لخالقه وبارئه، المطمئن إلى منعه وعطائه، ثم يرسم لنا خاتمة الغرور والطغيان وبطر النعمة ونسيان المنعم، يقول تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً. وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً. لَكِنَّا

---

[1] ـ في ظلال القرآن ٤: ٢٢٧٠.

هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحداً. وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً. فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقاً. أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً. وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً. وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً. هُنَالِكَ الوَلَايَةُ لِلَّهِ الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ [الكهف: ٣٢ـ ٤٤].

(إنه مثل يهزُّ النفس من أعماقها، فيبلغ تأثيره منها أبلغ مدى وهو يصور الثمر كله مدمراً لم يسلم منه شيء، والجنة خاوية على عروشها مهشّمة محطّمة، وصاحبها يقلّب كفيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب، وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته) ([1]).

ثم يأتي بعد ذلك هذا المثل الواقعي، الذي يحدثنا عن قصة واقعة يأتي مثلٌ للحياة الدنيا، وقد سبق الكلام عنه قريباً في هذا الأثر التربوي نفسه.

٢ـ والمثل الثاني: وهو قصة قارون ([2]) وما فيها من عبرة عظيمة، وموقف قومه منه، وما انتهى إليه أمره، وختمت به حياته من حلول العذاب العاجل به وبماله، وجعله

([1]) ـ في ظلال القرآن ٤: ٢٢٧١.

([2]) ـ إن قصة قارون تعدّ من الأمثال الضمنية في القرآن ـ وهي التي لم يصرح فيها بلفظ (المثل)، فمثل كل طاغية متجبر في الأرض كمثل قارون، وقد قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ. وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤ــ ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ [الفرقان: ٣٩]، فعلى المعنيين في تفسير الأمثال هنا تعد قصة قارون مثلاً لما فيها من عقد التشابه بين حال الطغاة في كل عصر ومصر، وبين حال أولئك الذين أخذهم الله سبحانه أخذ عزيز مقتدر، وهذا من أعظم أغراض ذكر مصير الأمم الماضية في القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣]، وقال سبحانه في عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].. ثم قارن بين أسلوب هذا المثل وأسلوب المثل السابق، الصريح، يتبين لك وجه ما أقول والله أعلم.

عبرة للمعتبرين ودرساً لمن تبهرهم زينة الحياة الدنيا فيلهثون وراء حطامها، وتثبيتاً للذين آمنوا حين يرون عاقبة الطغاة أمام أعينهم، وخاتمة المتجبرين المتألهين في الأرض.

وإذا كان المثل الأول يعبِّر عن نموذج إنساني فردي ـ إن صح التعبير ـ فإن المثل الثاني يتحول فيه النموذج الفردي إلى ظاهرة اجتماعية تطغى على مقاييس المجتمع وموازينه، وتبلبل أفكار الكثيرين من الناس.. عندما تملك من أسباب الفتنة ووسائل التأثير ما يمكنها من السيطرة على مقاليد الأمور ـ في نظر بعض الناس ـ فيفتتن بها ضعفاء النفوس ومهتزو العقيدة ممن يعبدون الله على حرف.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ. وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ. تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦ـ ٨٣].

لقد عرض هذا المثل أو هذه القصة بصورة حوار، تارة بين المؤمنين العقلاء المتقين، وبين قارون وهم يحذِّرونه ويخوِّفونه ويذكِّرونه عاقبة البطر والطغيان ويرسمون له المنهج الأمثل الذي يسلكه الإنسان العاقل فيما آتاه الله من مال ووسع

عليه من أسباب الدنيا، ولكنه يأنف مما سمع، وتأخذه العزة بالإثم، ويعلن ـ افتراءً ووقاحة ـ أنه أوتي هذا بكدّه وجدّه، ولم يؤته بفضل الله وعطائه..

ويختتم هذا الحوار الذي لم يثمر معه أية ثمرة بتعقيب إلهي صارم، فيه الإلماح إلى العاقبة المنتظرة لمثل هذا الطاغية المغرور: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

ثم ينتقل الحوار ليكون بين هذه القلة من المؤمنين المتقين، وبين ضعاف النفوس من المفتونين بالدنيا وزينتها.. وقد بلغ الزهو بقارون مبلغه، وخرج على قومه في عرضٍ طاغ يبغي الفساد في الأرض والفتنة، فتهتز بعض القلوب، وتزيغ العيون، وتنطلق ألسنة الذين يريدون الحياة الدنيا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾!! فيأتيهم أولئك الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان ونظروا إلى الحياة الدنيا نظرة الحق، فلم يغرهم المتاع الزائل ولا البهارج الزائفة يأتونهم ناصحين: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾، فيربطون قلوبهم بالآخرة وما فيها من مثوبة لمن آمن واتقى، وعمل صالحاً يبتغي رضوان الله وأجره..

لقد أصبح هذا الطاغية حديث الناس، وقصة المجالس، وحوار المتحاورين، وفتنة على ضعاف الإيمان واليقين، وهنا تأتي الخاتمة بصورة سريعة مفاجئة، فلا يكاد يستتمّ النقاش بين الفئتين، إلا وتتدخل القدرة الإلهية المهيمنة على الوجود كله.. بلحظة خاطفة، تجعل الأفكار الغافلة تصحو، والقلوب المفتونة تستيقظ، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾.. لقد ذهب الطغيان في لحظة، وبارت الكنوز والزينة في لمحة.. وأصبح الطاغية المغرور قصة تُروى ومثلاً يُضرب وعبرة للمعتبرين.. وتلفتت الفئة التي كانت مفتونة بالزينة والمظاهر الزائفة لتجد أن كل ما كان لم يكن.. ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ

وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

ويأتي التعقيب الإلهي على القصة كلها، خلاصة وافية، وبياناً دقيقاً لسنة الله في خلقه، وتوجيهاً تربوياً عميق الأثر بالغ الإيحاء: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وإن الإنسان العاقل بعد أن يعي هذه القصة ويتفاعل مع إيحاءاتها ومؤثراتها لَيرى في كل إنسان طاغية، أوتي متاع الدنيا وزينتها فطغى وبغى وعاث في الأرض فساداً وتكبر على الناس.. يرى فيه مثلاً لقارون، يعيد سيرته وينتظر عاقبته، فيقف هذا المثل سداً منيعاً بينه وبين الافتتان بهؤلاء الطغاة في كل زمان ومكان..

وبعد؛ فأي إيقاظ للنفس البشرية من غفلة الركون إلى الدنيا واتباع الأهواء والشهوات؟! وأي تحصين تربوي أمثل للإنسان من الافتتان بما عليه الطغاة والمتجبرون في الأرض من الزخرف والزينة والمتاع؟! أي إيقاظ وأي تحصين تحققه هذه الأمثال بعدما بينت الحقائق أوضح بيان، ورسمت أبعادها بصورة مؤثرة مشهودة، وعرَّت الطغاة المفتونين، وأعلنت سنة الله فيهم، وعاقبة طغيانهم وفسادهم تنذرهم بذلك، وتبلغ لهم في الحجة، وتحفظ المؤمنين من السقوط في الفتنة.

٨ـ والأثر الثامن من الآثار التربوية لضـرب الأمثال من حيث المضمون:

وهو الأثر السلوكي للمثل، وينقسم إلى نوعين رئيسيين:

النوع الأول: وهو في مجال الترغيب بفعل المأمورات: تشويق النفس إلى العمل أو الحال الصالح المرغب، وتنشيطها على فعله، والاعتزاز بانتسابه إليها..

والنوع الثاني: وهو في مجال الترهيب من فعل المنهيات: تنفير الإنسان من إتيان الفعل المنهي عنه، وحمله على التواري عن الأنظار عند فعله، والأَنَفَة عن انتسابه إليه.

وإن من نتيجة ذلك في المجتمع شيوع الخير وذيوعه، وصحة الموازين التي ينطلق منها الناس في تعاملهم وسلوكهم واستقامتهم، وانضباط علاقاتهم وتصرفاتهم على المنهج الحق وسلامتها.. وانقماع الشر وأسبابه وتواريه عن الأنظار وقلّته في المجتمع، وذلة أصحابه، وأن لا يرتفع لهم رأس، ولا يسمع لهم قول، ولا يحترم لهم رأي، ولا يجدوا أعواناً أو أنصاراً على ما يفعلون..

وهذا من أسرار الشريعة وحِكَمها العظيمة فيما جاءت به من إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه الفريضة التي يعني قيامها ـ حق القيام ـ ارتفاع كلمة الحق وسيادتها في المجتمع، وخنوس الباطل وذلّة أهله؛ لأن لهم أسوأ الأمثال، كما يعني قيامها سلامة المفاهيم وصحة الموازين التي تحكم تصورات الناس وسلوكهم..

ولا يخفى أن هذا الأثر يتصل اتصالاً وثيقاً بما سبق ذكره في الأثر الأول من أن القرآن الكريم سلك السبيل الأمثل إلى النفس البشرية، ألا وهو سبيل التأثير الوجداني، عن طريق لمس البداهة الفطرية، وإيقاظ الإحساس، لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة، ويتخطاهما إلى الوجدان.. وأنه يتخذ إلى ذلك أسلوب الوصف والتصوير، ليضع أمام خيال القارئ أو السامع أدق مرآة تبرز فيها الصورة المطلوبة بكل جلاء ووضوح..

فالقناعة العقلية المجردة القائمة على الجدل تحرج العقل، ولا تجعله يذعن، وتعطي دائماً صورة من الإيمان الباهت إن تجرّدت عن التفاعل الوجداني، والتأثير القلبي، والعواطف الإنسانية السامية..

وهذه القناعة أشبه ما تكون بتعامل الإنسان مع الأرقام الحسابية، والقوانين الطبيعية، لا يتفاعل معها شعور، ولا تتحرك لها العواطف..

فكما أن القرآن الكريم يسلك سبيل التأثير الوجداني، ويفتح منافذ الوجدان بوسائل متعددة، وأساليب كثيرة، لغرس القناعة العقلية وإيقاظ العقل وإثارة التفكير، فكذلك فإنه يتخذ الأداة نفسها، ويسلك الطريق نفسه طريق (التأثير الوجداني) لدفع

النفس البشرية إلى الالتزام الدقيق، والطاعة المثلى، واختيار السلوك العملي المرضي لله ورسوله..

وإن انفصام (القناعة العقلية) عن (التأثير الوجداني) هو الذي يفسِّر لنا الانفصام السلوكي في حياة بعض المسلمين اليوم، إذ نرى بعض الناس يقتنع اقتناعاً تاماً بضرر بعض الأشياء على صحته وحياته، ثم تراه لا يستطيع الانفكاك عنها أو الخلاص منها؛ لأن هذه القناعة العقلية لم تقترن بالإيمان القلبي والانفعال الوجداني، وهذا من أسرار نجاح الإسلام في تحريم الخبائث، واجتثاثها من حياة المسلمين ومجتمعهم، كتحريم الخمر والزنى وسائر الموبقات الأخلاقية، وإخفاق الأنظمة البشرية في محاربة الجريمة والقضاء على الخبائث الأخلاقية..

ونعرض فيما يلي نماذج وأمثلة من القرآن الكريم، والسنة النبوية، لنوعي الأثر السلوكي للمثل، ونكتفي في توضيح كل مثل بأن نجعل له عنواناً مناسباً يدلل على الأثر التربوي الذي وضحناه آنفاً، وإن كان كل مثل جديراً بأن يقف الدارس له وقفة تحليلية تربطه بالواقع، وتبين مدى تأثيره الاجتماعي.. وعسى أن يكون ذلك موضوع دراسة مستقلة..

أ ـ فمن الأمثال القرآنية عن النوع الأول:

١ـ تشويق الله تعالى لعباده أن يكون لهم نور من نوره بما ضرب لهم من المثل لنوره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ. اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٤ـ ٣٥].

ثم يقول تعالى بعد آيات: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

٢ـ الكلمة الطيبة، شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤ـ ٢٥].

٣ـ النفقة في سبيل الله مضاعفة مباركة.. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ـ والمؤمن المبتغي بنفقته مرضاة الله، الذي ينفق بسخاوة نفس ورغبة في الخير، كالحبة التي تؤتي أكلها ضعفين، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ب ـ ومن الأمثال النبوية عن النوع الأول:

١ـ المُؤْمِن كقطعة الذَّهَبِ، وكالنَّحْلَةِ، أَكَلَتْ طَيِّباً، وَوَضَعَتْ طَيِّباً:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْقِطْعَةِ مِنَ الذَّهَبِ، نَفَخَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا فَلَمْ تَغَيَّرْ، وَلَمْ تَنْقُصْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ النَّحْلَةِ، أَكَلَتْ طَيِّباً، وَوَضَعَتْ طَيِّباً، وَوَقَعَتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَلَمْ تَفْسُدْ) [1].

شبَّه المؤمن ـ وهو إذا أطلق فإنه يراد به المؤمن الذي تكاملت فيه خصال الخير باطناً، وأخلاق الإسلام ظاهراً، شبَّه المؤمن في المثل الأول بقطعة الذهب أحمى عليها صاحبها فلم يتغير ولم ينقص، بل يزداد بريقه ويشتدُّ لمعانه ويصفو لونه، وكذلك المؤمن ينزل به البلاء، فيزيده إيماناً ويطهّره من الخطايا، ويرفعه عند الله تعالى.

---

[1] رواه أحمد (٦٨٧٢).

وفي المثل الثاني: شبَّه المؤمن بالنحلة تأخذ الرحيق الطيِّب من كل زهرة وثمرة، وتضع الشراب الطيِّب، فيه اللذة والحلاوة والشفاء.. (فكذا المؤمن لا يأكل إلا طيباً، وهو الذي حلا بإذن ربه لا بهوى نفسه، فلذلك لا يصدر من باطنه وظاهره إلا طيب الأفعال وذكي الأخلاق وصالح الأعمال، فلا يطمع في صلاح الأعمال إلا بعد طيب الغذاء، وبقدر صفاء حلهن تنمو أعماله وتزكو)[1].

٢ـ المسلم دائم الخير كالنخلة:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ)؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ فَقَالَ: (هِيَ النَّخْلَةُ) قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، قَالَ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَ: هِيَ النَّخْلَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا[2].

٣ـ المؤمنون جسد واحد:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى)[3].

---

[1] - انظر: فيض القدير ٥: ٥١٤.

[2] - رواه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).

[3] - رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

ج ـ ومن الأمثال القرآنية عن النوع الثاني:

١ـ الكافرون كالأنعام بل هم أضل: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وفي هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

٢ـ المنسلخ من آيات الله وهديه كالكلب اللاهث: قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ـ ١٧٦].

٣ـ حامل العلم غير المنتفع به كالحمار يحمل أسفاراً: قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الجمعة: ٥].

٤ـ آكل الربا كمن يتخبّطه الشيطان من المسِّ: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٥ـ المعبودون من دون الله سبحانه أوهن من بيت العنكبوت، وأعجز عن خلق الذباب أو مقاومته: قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

٦ـ المغتاب يأكل لحم أخيه ميتاً: قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

د. ومن الأمثال النبوية عن النوع الثاني:

١ـ المتهافتون على المعاصي كالفراش المتهافتة على النار:

عن جابر رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً، فَجَعَلَ الجَنَادِبُ وَالفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي) [1].

٢ـ حب الدنيا وكراهية الموت يجعل الأمة الكثيرة كغثاء السيل:

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا). قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: (أَنْتُم يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ المَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهْنَ). قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الوَهْنُ؟ قَالَ: (حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ) [2].

---

[1] رواه مسلم (٢٢٨٥).

[2] رواه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٢٢٣٩٧).

٣ـ المتزينة لغير أهلها كالظلمة لا نور لها:

عن ميمونة بنت سعد رضي الله عنها، وكانت تخدم النبي صلى الله عليه وسلم، قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الرَّافِلَةِ فِي الزِّينَةِ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا كَمَثَلِ ظُلْمَةِ يَوْمِ القِيَامَةِ لَا نُورَ لَهَا) [١].

نظرة جامعة

بعد ملاحظة أمثال النوعين الأول والثاني بقسميهما، ودراستهما على ضوء هذا الأثر، نرى أن أمثال النوع الأول صوّرت بعض الأعمال الصالحة والأحوال المرضية عند الله تعالى ومن يتصف بذلك، بأمثال ملائمة، تجعل المؤمن الحق يحرص على الخير ويرغب فيه أبلغ الرغبة ويسعى للتحقق بتلك الصفات، ويعتز بانتسابه إليها وانتسابها إليه..

كما صوّرت أمثال النوع الثاني الأعمال المنحرفة والأحوال السيئة ومَن يقارفها أو يتَّصف بها، بأمثال سيئة، تجعلها مستبشعة مستقذرة، تدفع المؤمن الحق إلى أن يأنف عن فعلها ويتبرأ منها، ويستحيي أن تنسب إليه، فضلاً عن إتيانها أو المجاهرة بها، وعندما تتجاوب النفوس المؤمنة مع أصداء هذه الأمثال وإيحاءاتها وتوجيهاتها لا يمكن أن نرى في المجتمع المسلم ظاهرة (المجاهرة) بالمعصية والإعلان بها دون حياء من الله أو من الناس.. وهي أخطر ظاهرة اجتماعية.. إذا تفشت أدت إلى شيوع الفاحشة في الذين آمنوا، وفشوُّها دليل على تعطيل فريضة الله تعالى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا تعطلت تلك الفريضة وجاهر الناس بالمعصية وفشا ذلك آل الأمر إلى أن يرى الناس المعروف منكراً والمنكر معروفاً، ثم يستفحل الخطب، ويعظم

---

[١] . رواه الترمذي (١١٦٧).

البلاء، فيرفع رؤوسهم دعاة الفتن والفساد، ويأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، فتطمس معالم الدين وتنقلب في حياة الناس الموازين، ويمتحن الإسلام بين أبنائه فيعود غريباً كما بدأ.. وطوبى للغرباء..

ـ ومن الوجهة التربوية الفردية فإن غياب ظاهرة (المجاهرة) بالمعصية من المجتمع أعون ما يعين الفرد المبتلى بالمعصية على نفسه، فيرى نفسه شاذاً في سلوكه لا موافق له في المجتمع ـ والإنسان اجتماعي بفطرته، حتى في الناحية السلوكية يميل إلى ما يرى عليه الناس مجتمعين ـ فعندما يرى نفسه شاذاً في سلوكه يجاهد نفسه على الإقلاع عن تلك المعصية، ويستطيع بعون الله تعالى أن يغلبها؛ لأن عليها عوناً من داخله، وعوناً من المجتمع حوله.. ذلك المجتمع النظيف الذي لا يقرُّ ظاهرة (المجاهرة) بالمعصية في أرجائه..

وفي هذه المناسبة لا أرى لي بداً من الإشارة إلى أن خير محاربة لظاهرة (التدخين) ومكافحة لها مجدية ـ عدا عن وسائل التوعية الدينية والصحية والأخلاقية التي لا خلاف في فائدتها وتأثيرها ـ خير محاربة لهذه الظاهرة وأقوى سلاح عملي للقضاء عليها أن نستعين عليها بسلاح الاستتار.. أن نحولها من ظاهرة يجاهر بها المبتلون ويتحدّون بها قيم الأمة ومشاعرها، فيشجعون بسلوكهم ومظاهرهم وإيحاءاتهم وحركاتهم بين أصابعهم، يشجعون بذلك كله انتشارها في سلوك الناشئة والجيل الجديد، بصورة تصبح بعدها كل وسائل التوعية ضعيفة التأثير، أو عديمة الجدوى..

وما أصدق الحكمة النبوية التي ذهبت مثلاً سائراً في الناس: (إذا ابتليتم بالمعاصي فاسستتروا) ( )، وليس فيه التبرير للمعاصي أو التهوين لإتيانها، كما يحلو لبعضهم أن

( ) ـ ذكره في كشف الخفاء بلفظ: (إذا بُليتمْ بالمعاصي فاستَتِروا) وقال فيه: (قال السخاوي يأتي فيمن أتى من هذه القاذورات شيئاً فينبغي للعبد أن يتوب منها ولا يظهرها للناس حيث سترها الله عليه، وهذا الحديث رواه البيهقي والحاكم عن ابن عمر وقال: إنه على شرطهما بلفظ اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فمن ألم منها

يفهم، وإنما فيه التربية النبوية الدقيقة، والمعالجة الحكيمة لتضييق نطاق المعصية إلى أقل حدٍّ ممكن، لنقوى بذلك على الخلاص منها واجتثاث أصلها، ويشهد لذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كُلُّ أُمَّتِي مُعَافِي إِلَّا المُجَاهِرِينَ) متفق عليه [1].

اقتران النوعين في بعض الأمثال، وتأثير ذلك:

ونعود إلى الأثر السلوكي للمثل بنوعيه فنقول: إن هناك بعض الأمثال ـ وهي ليست بقليلة ـ جاءت في القرآن والسنة يقترن فيها النوع الأول بالثاني، إما اقتراناً متصلاً مباشراً أو اقتراناً غير مباشر، كما لو جاء التمثيل للنوع الثاني عقب التمثيل للنوع الأول، ولكن بصورة غير ممتزجة، وإنما بصورة تابعة لاحقة.

ولا شك أن هذا الأسلوب القرآني والنبوي فيه تأثير أبلغ وتصوير أكمل؛ لأن تقابل الصورتين يوضِّح مدى البون الشاسع يوضِّح مدى البون الشاسع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر..

ولنقدم بعض النماذج من القرآن والسنة، ففي عرضها ما يكشف عن أهمية هذا الأسلوب القرآني، وأثره التربوي النفَّاذ..

أ ـ فمن الأمثل القرآنية في ذلك:

١ـ يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ

بشيء فليستتر بستر الله وليتب إلى الله، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله، قاله صلى الله عليه وسلم بعد رجم ماعز رضي الله عنه). انظر: كشف الخفاء ١: ٨٧.

(1) ـ وتتمة الحديث: (وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستر الله عليه فيقول يا فلان عملت كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، وهو يصبح يكشف ستر الله عليه). ولاحظ قوله في صدر الحديث: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين) أي يؤول أمره إلى العافية من المعصية ما لم يكن مجاهراً..

فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ العَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ١٧-٢٤].

فقد مهَّد النصُّ بين يدي عرض صورتَي الكافرين والمؤمنين ببيان أن محمداً صلى الله عليه وسلم على بيِّنة من ربِّه، وأن من يكفر بما نزل عليه من الوحي: ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم عرض النصُّ أوصافاً للكافرين المفترين على الله تعالى الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون، وبيَّن عذابهم وخسرانهم في الآخرة، ثم بيَّن مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخشعوا لله وانقادوا لشرعه، إنهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون..

ثم عرض بعد ذلك كله مثلاً مقارناً بين الفريقين يبيِّن حال هؤلاء وأولئك، فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

٢- ومنها قوله تعالى في بيان أنواع المُنْفِقين بضرب الأمثال لهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ

مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ

[البقرة: ٢٦١ـ ٢٦٦].

٣ـ ومنها ما ذكره الله تبارك وتعالى من المثلين عن الكافرين وأعمالهم، بعدما ضرب المثل لنوره، فقال سبحانه: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ. رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ. لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ. أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥ـ ٤٠].

ب ـ ومن الأمثال النبوية المقارنة:

١ـ مثل المؤمن، ومثل الكافر:

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُفِيئُهَا الرِّيَاحُ تَصْرَعُهَا مَرَّةً، وَتَعْدِلُهَا أُخْرَى، حَتَّى تَهِيجَ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ مَثلُ الأَرُزَّةِ الْمُجْذِيَةِ لَا يُقِلُّهَا شَيْءٌ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً)[1].

معاني الكلمات:

ـ تُفِيئُهَا: أي تميلها وتحركها يميناً وشمالاً، أي تصيبه الأمراض والمصائب.

ـ الأرزة: هي شجرة الأرز، وقيل: الصنوبر.

ـ المُجْذية: الثابتة المنتصبة.

ـ لا يُقِلُّهَا: لا يرفعها ولا يحركها.

ـ انْجِعَافُهَا: أي انقلاعها.

والمعنى الإجمالي للحديث:

قال أبو عبيدٍ: (والمعنى أنه شبَّه المؤمن بالخامة التي تميلها الريح؛ لأنه مرزأ في نفسه، وأهله وولده وماله.

وأما الكافر، فمثل الأرزة التي لا تميلها الرياح، والكافر لا يرزأ شيئاً حتى يموت، فإن رزئ لا يؤجر عليه، فشبَّه موته بانجعاف تلك، حتى يلقى الله بذنوبه وهي جمة).

وفي رواية: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ السُّنْبُلَةِ تُحَرِّكُهَا الرِّيحُ، فَتَقَعُ مَرَّةً، وَمَرَّةً تَقُومُ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ مَثَلُ الأَرْزَةِ؛ لَا تَزَالُ قَائِمَةً حَتَّى تَنْقَعِرَ)[1].

---

[1] . رواه البخاري (٥٦٤٤)، ومسلم (٢٨١٠).

فهم آخر للحديث:

ويبدو لي فهم آخر للحديث، تؤيّده الرواية الأولى، وهو أن المقصود بالرياح في الحديث رياح الأهواء والشهوات، والمعاصي والذنوب، فالمؤمن يصارع أهواءه وشهواته المحرمة فيقع ويتوب، ثم يقع ويتوب، حتى يأتيه أجله، أما الكافر فهو مصرٌّ على كفره وأهوائه لا يعدل عنها ولا يتركها، كالشجرة القاسية الصلبة لا تؤثر فيه موعظة ولا تنفعه ذكرى حتى يكون هلاكه، كانجعافها مرة واحدة، والله تعالى أعلم.

٢ـ مثل مواقف الناس من الهدى والعلم:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الهُدَى، وَالعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) [2].

٣ـ مثل الذاكر لربه وغير الذاكر:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ) رواه البخاري (٦٤٠٧)، ورواه مسلم (٧٧٩) بلفظ: (مَثَلُ البَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، وَالبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ).

( ) ـ راجع: أمثال الحديث النبوي للأصبهاني ٢: ٢٣١.

( ) ـ رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

٤ـ مثل قارئ القرآن، المؤمن والمنافق، والذي لا يقرأه:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرآنَ، مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ القُرآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ، كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ) ([١]).

٥ـ مثل الجليس الصالح، وجليس السوء:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً) ([٢]).

وبعد؛ فلقد كنت أكتب وأبحث وأظن أنني عثرت على كل شيء.. وعندما وقف القلم عند آخر أثر من هذه الآثار التربوية وقفت متأملاً لما كتبت وأعدت البصر، وأجلت الفكر كرة أو كرتين، فإذا بي أجدني لم أنل سوى قطرة من بحر، ولم أزل في أول الطريق.. أقف بساحل بحر القرآن.. لم أبلغ من أبعاده الوطر، ولم أحظَ من دوره إلا ببعض النظر.. ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف: ١٠٩]، وتلك آية من آيات عظمة القرآن وإعجازه، وبعض من معاني: (لا تنقضي عجائبه، ولا تبلى جدّته، ولا يخلق على كثرة الرد..).

([١]) ـ رواه البخاري (٥٤٢٧)، ومسلم (٧٩٧).

([٢]) ـ رواه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).

المبحث الرابع

كيف يستفيد المربي من الأمثال القرآنية

أو: الأمثال القرآنية في الميدان التربوي

إن المربي لا يستطيع الاستفادة من الأمثال القرآنية بمجرد الاستشهاد بها فحسب، بل إن الاستشهاد بها بعيداً عن التشبع بالمنهج القرآني في التربية قد يعطي نتائج معكوسة، ويؤدي إلى آثار سلبية على نفس الطالب أو المتلقي، فلا بد من مجموعة عوامل تحقق استفادة المربي من الأمثال القرآنية، وتجعل هذه الأمثال ذات دور فعَّال في التربية والتقويم..

ـ ونتناول الحديث عن هذا المبحث في جانبين أساسين:

الأول: يتعلق بالمربي ودوره في الاستفادة والإفادة من الأمثال القرآنية..

والجانب الثاني: يتعلق بالأمثال القرآنية نفسها، كيف يمكن الإفادة منها، وتوظيفها في العمل التربوي؟ سواء أكان في ميدان التعليم أم في ميدان التربية والتوجيه.

ونبدأ الحديث عن الجانب الأول فنقول: إن التعليم لهو أشرف مهنة ينتسب إليها الإنسان، ويكفي المعلم شرفاً أن تتحلَّى حياته بعمل كان شعار الأنبياء في دعوتهم وجهادهم وأمرهم ونهيهم، وكان مهمتهم الأساسية التي ألقاها الله تبارك وتعالى على كواهلهم.. ألا وهي مهمة التبليغ لرسالات الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: (..وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً) ([١]).

([١]) . رواه مسلم (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١).

وإذا كان التعليم بهذه المكانة وهذا الشرف الرفيع، فإن التوجيه والتربية هما روح التعليم وغايته ومقصده الأسمى ورسالته، وعليه فلا بد للمعلم الذي يضطلع بأعباء هذه الرسالة السامية أن يتمثل بها في مفاهيمه وسلوكه، ومشاعره وميوله وأذواقه الخاصة، وعلاقاته العامة، ولا بد للمعلم أن يحترم الرسالة التي يحملها، فيتحقق بما يَعلم ويستجيب أولاً لما يقول.. وأن يكون صورة حية للرسالة التي يؤمن بها والدعوة التي يرفع لواءها، كما كان صلى الله عليه وسلم.

فقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: (أما تقرأ القرآن؟ كان خلقه القرآن) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وفي رواية: (كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه، ويغضب لغضبه) [١].

وبدون التحقق والعمل لا يمكن أن تثمر للمعلم أو المربي جهود، أو تظهر لعمله نتائج، ويكون عمله جسداً لا روح فيه، وصورة لا حقيقة لها، وشكلاً لا معنى له.. بل على قدر تحقق المربي أو المعلم بما يقول تثمر جهوده وتفلح مساعيه، وتظهر ثمرات زرعه وغرسه..

فالتربية والتوجيه هما الهدف الأول لعمل المربي، وأعظم هدف لكل مادة من المواد الدراسية التي يتلقاها الطالب في كل مرحلة من مراحل دراسته وتعليمه، وهما الهدف الأول والأخير لتعلم المواد الدينية؛ لأن تعليم المواد الدينية خاصة لا يعني بحال من الأحوال حشو ذهن الطالب بمعلومات أو أفكار سطحية، أو بمحفوظات يرددها في كل مناسبة دون وعي أو تفاعل أو استجابة، وإنما التعليم السليم ما تقترن فيه الفكرة بالسلوك، والقول بالعمل، والصورة بالحقيقة، وبدون ذلك لا يتحقق تعليم، ولا تبنى ثقافة صحيحة، فالإسلام روحه التربية.

---

(١) . في ظلال القرآن ١: ٥٠٠ـ ٥٠١.

والتربية أساس نجاحها المربي القدوة الذي يأتمر بما يأمر، وينتهي عما ينهى، ويؤثر بحاله قبل قاله، وبقلبه أكثر من لسانه.. وتسري أخلاقه في القلوب كما يسري الغيث في جذور الشجر، فيحي الأرض بعد موتها بإذن الله تعالى..

والأمثال القرآنية وهي موضوع من المواضيع القرآنية المتنوعة، التي تسري فيها روح القرآن وأسلوبه وأهدافه، لا بد ليتمكن المربي من الاستفادة منها في ميدان التربية والتقويم، وكذلك الإفادة، لا بد له أن يتحقق بالأمور التالية:

١ـ التشبع بروح القرآن والسنة، وهذا يعني دوام الاتصال بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وفقه السيرة العطرة، والتربية النبوية القويمة، ويعني كذلك الفهم والتدبر والإدراك الشامل لأهداف القرآن، وأسلوبه في التأثير والتغيير، وخاصة في ميدان الأمثال القرآنية التي هي موضوع بحثنا..

٢ـ ربط التوجيه والمفاهيم التربوية والسلوكية بمصدرها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وتعميقها وترسيخها عن طريق إثارة الوجدان، والدعوة إلى التفكير والتأمل والنظر، ورصد الظواهر الاجتماعية وتحليلها وتقويمها، وفقه الأحداث التاريخية، وأخذ العبرة والدروس منها.

٣ـ السلوك العملي الملتزم المسؤول، والقدوة الحسنة للطلاب في كل شأن، وإنما قيدنا السلوك بالمسؤول لأن الشعور بالمسؤولية عن التصرفات والأعمال التي يقوم بها الإنسان أمام الآخرين، وخاصة أمام من هم أدنى منه وهم في مرحلة التلقي عنه.. هذا الشعور هو أساس الالتزام الأخلاقي والسلوكي الدقيق، في حياة المربي وشخصيته وتصرفاته وعلاقاته، فضلاً عن الشعور برقابة الله تعالى، والقيام بالعمل ابتغاء وجهه.

٤ـ التوجيه المستمر والرعاية الدائمة والاهتمام الصادق بأحوال من يربِّيه، والمتابعة الدقيقة لشؤونه وأوضاعه وتقلّباته.

ولا شك أن هذا يعكس صدق ارتباط المتلقي أو الطالب بمرشده أو أستاذه واستجابته له في توجيهه وملاحظاته، وتأثره بكلامه وسلوكه.

٥ـ تحقق المربي بالإيجابية في شخصيته وسلوكه وعلاقاته، وأن يكون بعيداً عن السلبية في المواقف، واللامبالاة تجاه الأفراد الذين يتلقون عنه التوجيه والتربية.

وإيجابية المربي واهتمامه يعود على المتلقي بالإيجابية في التفاعل والبناء، والهمة الطامحة العلياء، وعكس ذلك لا ينتج إلا شخصيات مهزوزة في تكوينها وسلوكها، ضعيفة البناء باردة العواطف، متراخية في جدها ونشاطها.

٦ـ تحلي المربي بكريم الأخلاق من سعة الصدر والرحمة والشفقة، والحرص على نفع الخلق، والصبر وتحمل الأذى وطيب الكلام ولين الجانب، وهذه الصفات الكريمة كانت من أهم الصفات التي امتدح الله تبارك وتعالى بها نبيَّه صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فلا يمكن للإنسان الفظّ الغليظ مهما بلغ من شأنه في العلم، ومهما حاز من أسباب الرفعة والتقدم عند الناس، أن يملك التأثير، أو تجتمع حوله القلوب، أو ينتفع الناس بكلامه، إن لم تتحقق في شخصيته وسلوكه هذه الصفات الكريمة..

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (فهي رحمة اللّه التي نالته ونالتهم، فجعلته صلى الله عليه وسلم رحيماً بهم، ليناً معهم.. ولو كان فظاً غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر.. فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم

وضعفهم ونقصهم.. في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء..

وهكذا كان قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كانت حياته مع الناس.. ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه نتيجة لما أفاض عليه صلى الله عليه وسلم من نفسه الكبيرة الرحيبة)[1].

وبعد فإن تحقق المربي بهذه الصفات، ومراعاته لهذه الحقائق في شخصيته وسلوكه، يمكِّنه من الاستشهاد بأمثال القرآن الكريم والسنة النبوية، بصورة مثالية، ويجعل لاستشهاده بها تأثيراً كبيراً؛ لأنه يقوم على أسس سليمة، ويرتكن إلى حقائق راسخة، كما يكون العمل التربوي على أساس هذه الحقائق ذا دور فعَّال في البناء الجادّ والتقويم السليم.. فلا بد إذن أن يتحقق المربي بمؤهلات إيمانية وعلمية وأخلاقية ونفسية، ليكون عطاؤه التربوي عطاءً متوازناً متناسقاً مؤثراً..

وأما الجانب الثاني وهي الذي يتعلق بالأمثال القرآنية نفسها، وكيف يمكن الإفادة منها وتوظيفها في العمل التربوي والتوجيهي، سواء أكان في ميدان التعليم أم في ميدان التربية والتوجيه..

وبادئ ذي بدء نقول: إن الاستشهاد بالأمثال القرآنية عملية علمية يحتاج فيها المربي إلى الدراسة والاطلاع والفهم والتدبر، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ

---

[1] . في ظلال القرآن ١: ٥٠٠ـ ٥٠١.

لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ـ ولكن السؤال الذي يطرح في هذا المقام: هل تأثير الأمثال التربوي يقف عند الاستشهاد بها في مواطنها وإيرادها في مناسباتها، ويقتصر على ذلك فحسب؟

ولا شك أن الجواب سيكون بالنفي.

ـ فيتجه سؤال آخر: فكيف تتم الاستفادة من الأمثال القرآنية في الميدان التربوي والتوجيهي إذن؟

ونلمح في الإجابة عن هذا السؤال مرحلتين أساسيتين:

المرحلة الأولى: المعرفة الدقيقة بطبيعة النفس البشرية، والاطلاع الواسع على الدوافع المؤثرة فيها، وما يرغبها وما يرهبها، وأفضل الوسائل والأساليب لعلاج أمراضها، والتأثير في أخلاقها وميولها واتجاهاتها، ليكون الاستشهاد بالأمثال القرآنية في مواطنها المناسبة، وتؤدي غرضها المطلوب.

والإحاطة الشاملة بالنفس البشرية ليست إلا لخالقها جل وعلا.. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ؟!﴾ [الملك: ١٤]، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]، (وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٢١٦]، وهذا ما لا يطمح إليه مخلوق يعرف قدر نفسه.

ولكن شتان بين المربي الذي يتعامل مع من يربِّيه أو يوجِّهه بجهالة وسذاجة وسطحية، أو عفوية غير مكترثة ولا مبالية.. فيفسد ولا يصلح، ويخرب ولا يبني، وبين من يتعامل مع مَن يربِّيه بمعرفة بطبيعة نفسه ودوافعه ورغباته، وأهوائه وميوله، وما يرغبه وما يرهبه، فإنه لا جرم يقدِّم له من العلاج ما يلائم نفسه ويؤثر فيها، فالمعرفة بطبيعة النفس البشرية تعطي كل نفس ما يناسبها من الأمثال، والجهل بطبيعة النفس

البشـرية قد يؤدي إلى أن تعطى ما لا يناسبها، فيكون فتنة عليها ومقتلاً لها، أو تعطى ما يناسبها ولكن في وقت غير ملائم لها فتؤدي عكس المطلوب..

ومثل ذلك كمثل الطبيب الذي يعطي المريض مرضاً خفيفاً دواءً ثقيلاً لا يناسب مرضه فيقتله، أو يعطي المريض دواء في غير وقته الملائم له فلا ينفعه، وقد يزيد مرضه أو يهلكه..

واعتبر ذلك بما لو حضرت موعظة لم يحسن فيها الواعظ أسلوبه، ولم يتقن فن خطابه للحاضرين، ولم يتلاءم كلامه مع الوقت الذي هو فيه، إذ لكل مقام مقال، وقد يكون كلامه حقاً لا غبار عليه، ولكنه لا يصادف من أكثر الناس إلا النفور والتأبي، ولا تقابله النفوس إلا بالصدّ والإعراض.

وأذكر أنني حضرت مرة صلاة عيد الأضحى، فوقف الخطيب ليخوِّف الناس من عذاب الآخرة وليندد بغفلة الناس ولهوهم، وساق من آيات التهديد والوعيد ما تقشعرُّ له الأبدان وترتجف به القلوب، فوجم الحاضرون وتململوا.. ولمحت في وجوه الحاضرين أنهم غير منسجمين مع الخطيب وغير مرتاحين لحديثه، ولا متأثرين بكلامه مع أن قوله حق، واختتم كلامه بمثل ما افتتحه.. حتى وقع في نفسي التماس العذر له أنه ناسٍ أن اليوم يوم عيد وأن له من الكلام مع الناس ما يناسبه، مما لا يناسب أن يقال في غيره، وما قيل اليوم كان يمكن أن يقال في غيره، وسبحان الله.. ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩]. والتمثيل ضرب من الحكمة.

والمرحلة الثانية: بعد المعرفة بطبيعة النفس البشـرية، لتقع الأمثال مواقعها، ولتصيب مواطنها، وتؤدي دورها وتأثيرها، أن الدراسة الدقيقة للأمثال القرآنية، والفهم الواسع والتدبر العاقل يعطي المربي ملكة تربوية قوية في التأثير، راسخة في التوجيه، آسرة للقلوب، ويمكِّنه من توليد الأمثال والقياس عليها مما يحقِّق له دوراً أكبر في التربية والتوجيه..

وما مثل المربي في ذلك إلا كمثل العالم المجتهد، فإن قدرته على الاجتهاد لا تكون إلا بالمعرفة المتعمقة بأسرار الشريعة ومقاصدها، وعلل الأحكام وحكمها، والاطلاع الواسع على أدلة الأحكام عامها وخاصها، لتتحقق له ملكة الفهم والاجتهاد، وقياس غير المنصوص عليه على المنصوص، أو كمثل الطبيب الحكيم المجرب..

وإن من يطالع آثار سلف هذه الأمة من الأئمة الدعاة الهداة، أطباء القلوب، أساطين التربية والتزكية، يجد مصداق ما أقول، فمعالجاتهم لأدواء القلوب، ووعظهم وكلامهم، كل ذلك مشبع بروح القرآن في التربية والتوجيه بصفة عامة، ومشبع كذلك بطريقة القرآن الكريم في ضرب الأمثال للناس، وتقريب الحقائق إلى الأذهان، وإثارة كوامن الخير في القلوب، وحفز الهمم إلى الإقبال على الآخرة، والاستعداد للقاء الله تعالى.

وخذ على ذلك نموذجاً كتابات حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى في إصلاح النفس، وكشف عيوبها، وعلاج أمراضها، وما ضربه على ذلك من الأمثال..

وكذلك ما كتبه الإمام الكبير شمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى وأجزل مثوبته، فقد ضرب أمثالاً رائعة في كتابه النفيس: (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان)، وكذلك كتابه الفريد في بابه: (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين).

ولو حاول باحث أن يجمع فرائد الأمثال التي ضربها الأئمة الدعاة من سلف هذه الأمة لكان من ذلك مؤلف فريد في بابه، يعين المعلمين والمربين على أداء مهمتهم العظيمة على وجه قريب من الكمال، وينمي فيهم ملكة ضرب الأمثال، ولعلَّ التوفيق الإلهي يسعف بالقيام بمثل هذا العمل، والله المستعان.

المبحث الخامس

التصنيف الموضوعي للأمثال القرآنية

يكاد يكون هذا المبحث مبحثاً تكميلياً لموضوع دراستنا لا يتصل به اتصالاً مباشراً، وإنما الإلمام يزيد من تصوُّر الموضوع ونضجه، ولذا فإني لا أجد مبرراً للتوسع فيه، وإنما يكفي الإلمام به إلماماً يسد حاجة هذه الدراسة ويكمل موضوعها، وإلا فإن هذه العنوان نفسه يصلح أن يكون موضوع دراسة خاصة مستقلة وشاملة.

وإن من البداهة في تصور كل مسلم أن القرآن الكريم يعالج النفس البشرية بجملتها وتكوينها، فلا يعتني بجانب منها على حساب جانب آخر، ولا يهتمُّ بجانب ويهمل آخر، كشأن النظم البشرية والقوانين الوضعية التي تتحكم بها أهواء البشر ونزعاتهم وميولهم، ويتناغم مع هذه البدهية بدهية أخرى تتصل بها أوثق اتصال، وهي أن القرآن الكريم شرعة كاملة ومنهاج شامل لجميع الجوانب والشؤون العقدية والعبادة والتشريعية والأخلاقية..

ومن هنا كان التأثير التربوي للقرآن الكريم كاملاً شاملاً محيطاً بالنفس الإنسانية من أقطارها، وداخلاً عليها من منافذ التأثير فيها..

وكانت الأمثال القرآنية لا تقتصر على جانب واحد من الجوانب التي عالجها القرآن الكريم ونظَّمها.. وإنما تتناول جوانب العقيدة والعبادة والتشريع والأخلاق بنسب تتفاوت بين جانب وآخر، قدَّرتها الحكمة الإلهية تقديراً..

ـ وفي مجال التصنيف الموضوعي للأمثال القرآنية ينبغي أن لا تغيب عن أذهاننا عدة حقائق أولية:

الأولى: قيام الموضوعات القرآنية كلها على أساس من التصور العقدي النقي، واتصالها كلها بالإيمان بالله تعالى وحده، وتنزيهه سبحانه عما لا يليق به، والإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته..

والثانية: تمازج الموضوعات القرآنية وترابطها الوثيق ببعضها بعضاً: فنلاحظ ترابط الموضوعات العقدية بالموضوعات العبادية، وامتزاج التأصيل الأخلاقي بالبناء التشريعي، وترابط العبادة بالأخلاق، والتشريع بالعبادة، في وحدة منتظمة متناسقة ى ترى فيها عوجاً ولا أمتاً..

وهذا شيء مراد مقصود لم يكن في أسلوب كتاب الله تعالى، ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم عفواً ولا اعتباطاً، كما يظن بعض أعداء هذا الدين جهلاً بحقائقه وخصائصه، وعمى عن الحق وتألقه، وأول ما نلمحه في ذلك أن هذا الأسلوب ـ من اتصال موضوعات القرآن الكريم بعضها ببعض ـ ظلٌّ من ظلال حقيقة هذا الإسلام الوارفة، التي تعني الاستسلام الكامل والانقياد التام لله تعالى في كل شأن من شؤون الحياة، وتعني شمول هذا الدين بحقائقه الربانية لكل نشاط إنساني..

وليس هذا الموضع مجال بسط هذا الأمر والتوسع فيه، وهو من البدائه التي لا يختلف عليها اثنان.

والحقيقة الثالثة: أن الهدف الأساسي من المعالجة الموضوعية للأمثال القرآنية تثبيت القناعة العقلية البرهانية لدى المؤمنين، وحثهم على الاستجابة، وحملهم على الطاعة والعمل، وتفنيد مزاعم المشركين وإبطال دعاواهم، وإلزامهم بالحجة والبرهان، وتوضيح الحق ورفع مناراته، ودحض الباطل وكشف شبهاته..

والحقيقة الرابعة: هي دور الأمثال القرآنية في إعطاء الأحداث التاريخية بعداً تأثيرياً خاصاً، وربطها بسنن الله تعالى في التأثير والتغيير، وتفسيرها التفسير الصحيح.. فهي من جهة لا يراد من ذكرها العرض التاريخي المجرد، على أن الحقائق التاريخية

المذكورة حقائق موضوعية دقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.. وإنما يراد من ذكرها الكشف عن السنن الإلهية التي أقام الله عليها هذه الحياة في أحداثها وتطوراتها وتقلباتها..

ـ ومن جهة أخرى يراد من ذكر الأحداث التاريخية والكشف عن السنن الإلهية التي تجري وفقها إعطاؤها البعد الديني بمعناه الحضاري الواسع..

وعندما تدرس الأمثال التاريخية بهذا الشمول، لا شك يكون لها بُعدٌ تأثيري خاصّ يجعلها تؤثر تأثيراً عميقاً في النفس البشرية، فتتفاعل بالفكرة وتستجيب لها..

ولنقف على بعض النماذج من الأمثال القرآنية التي تكشف لنا عن الترابط الموضوعي لأمثال القرآن الكريم:

ـ ففي ميدان قيام الموضوعات كلها على أساس من التصور العقدي النقي، نقرأ قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ـ وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

ـ وفي المفاصلة بين الحق والباطل نقرأ قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

ـ وفي الفرق بين كلمة الحق والإيمان، وهي الكلمة الطيبة، وبين كلمة الكفر، وهي الكلمة الخبيثة نقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤ـ ٢٥].

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

ـ وفي عاقبة الضلال بعد الهدى، والانحراف بعد وضوح المنهج نقرأ قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ـ ١٧٧].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ. أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٧ـ ١٩].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة: ٥].

ـ وفي تهافت عقيدة المشركين وفساد تصوراتهم، وتناقضهم مع أنفسهم نقرأ الأمثال التالية:

ـ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ. فَلَا تَضْرِبُوا للهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣ـ ٧٤].

ـ ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

ـ ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ـ ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٨ـ ٢٩].

ـ وفي عجز الآلهة المزعومة أن تخلق أو ترزق، أو تدفع عن نفسها الضر نقرأ الأمثال القرآنية التالية:

ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

ـ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

ـ وفي فساد أعمال الكافرين وبطلانها وضياع أثرها نقرأ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

ـ ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ـ ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

ـ وفي مجال اتصال التشريع بالأخلاق، وتمازج الموضوعات القرآنية ببعضها نقرأ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ـ وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ [النحل: ٩١ـ ٩٢].

ونختم هذا المبحث بملاحظة لا تخفى عن الناظر المتأمل في الأمثال القرآنية، وهي جديرة بالبحث والتعليل، وهي أن أكثر أمثال القرآن الكريم تتعلق بجانب العقيدة سواء أكان ذلك بأصولها وأسسها، أم بجانب من الجوانب التي تتصل بها.

وتعليل ذلك على وجه الإجمال يعود إلى ما ذكرته في الملاحظة الأولى من هذا المبحث من أن التصور العقدي هو الأصل الكبير الذي تقوم عليه الموضوعات القرآنية كلها، والأساس الذي يرتفع عليه بناء الدين كله، وهو الذي أخذ من عمر الدعوة النبوية ما يزيد عن الشطر، لتأصيله وترسيخه، وهو الذي كان الجهاد في المرحلة المكية، وتحمل الأذى والاضطهاد كله، لإقامته وتمكينه.. فلا غرو بعد ذلك أن يحتلَّ من أمثال القرآن الكريم المساحة الأكبر، والحظ الأوفى، وبخاصة إذا لاحظنا مع تلك الحقيقة ما ذكر في الحقيقة الثالثة من أن الهدف الأساسي لأمثال القرآن الكريم هو تثبيت القناعة العقلية البرهانية لدى المؤمنين، وتفنيد مزاعم المشركين، وإبطال دعاواهم، وإلزامهم بالحجة والبرهان..

الخاتمة

وفي الختام نخلص من هذه الدراسة العجلى، ونحب أن نمسك بخيوط أهم الحقائق المبثوثة في ثناياها، لتكون خلاصة لما تفرق في البحث:

١ـ فأول ما نستفيده من هذا البحث أهمية دراسة الأمثال القرآنية، والأمثال النبوية من الوجهة التربوية، وتنوع آثارها التربوية وأهدافها، مما يبوئها مكانة تربوية مثلى، ويؤكد على ضرورة اهتمام المربي بها ودراستها، واتخاذها وسيلة للتربية والتقويم.

٢ـ عمق الآثار التربوية للأمثال، وإيحاءاتها التربوية المتجددة، وهذا ما يعطي المربي قوة في الفكر ونفاذاً في التأثير، ومادة غنية في التربية والتوجيه، ولا جرم أن الفكرة التي يراد الإقناع بها أو تبنيها وحملها كلما قدمت لها الأدلة المثبتة والبراهين الساطعة تمكنت من النفوس أكثر، وضرب جذورها في أعماقها، وتجاوبت معها القلوب واستجابت لها الجوارح، واصطبغ بها السلوك.

٣ـ الدور المشوِّق لأسلوب الأمثال وطريقتها الفذة في التأثير، وجذب انتباه السامعين، ويستفيد المربي من ذلك أن يقوِّم أسلوبه وطريقته التربوية، ويحرص على التأسي بأسلوب القرآن وطريقته، والاقتباس من هديه وآدابه..

فعلى المربي أن يعتمد على الأمثال القرآنية في أسلوبها وخصائصها، وأهدافها وآثارها، وأن يتعمق في فهمها ودراستها، ليتهيأ له القيام بدوره التربوي في البناء والتقويم، وفي تهذيب النفس الجامحة، وردّها عن الانحراف والزيغ.

وبعد؛ فها أنذا أمسك بعنان القلم ليقف.. وقد طوَّف وجال، وأُحسُّ أنه يقف حيث بدأ وكأنه لم يزل في أول الميدان، لا يتجاوز فيه مرخى العنان، وكيف يطمح ان يبلغ من القول ما يريد، وهو يقف بساحل كتاب الله المجيد؟!

أمسك بعنان القلم، ولسان حاله يقول: ما أوسعَ القول لمن أراد المزيد! وما أنت وما تريد، إلا كمن رام درر البحر المحيط، بيديه القاصرتين، فاجتهد وحاول، وتحرك وصاول، ولقد يراها بعينه لصفاء الماء ورقته.. ولكن أنَّى له أن يصل إليها بجهده، أو يدرك غورها بعاجل فكره!

وهل يستطيع عاقل أن يدَّعي أنه أحاط بمثل هذا الموضوع خبراً، أو أنه لملم أطراف بحثه فكراً، وجمعه ذكراً، وفصَّله درساً وسبراً؟!

اللّٰهُمَّ إن تكن هذه الدراسة شيئاً، فأرجى ما تكون عندي أنها فتحت باب التأمل والفهم لأمثال القرآن الكريم، والعكوف على أسرارها المعجزة، ودررها الكامنة..

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَما يَعْقِلُها إِلَّا العالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فلئن وفقت فيما اجتهدت وبحثت، فذلك فضل الله تعالى وحده، وفتحه وتوفيقه، ولئن أخطأت وزللت، فما ذلك عني ببعيد وأنا العبد القاصر المقصِّر ذو الباع القصير والفكر العليل الذي تجاوز حدّه فاقتحم وتجرَّأ، ولكن التماس فضل الله ومنَّته، وعونه وتأييده، وحب خدمة كتابه، حمله على نسيان قدره وتجاوز حدّه..

فاللّٰهُمَّ أسألك أن تتجاوز عن غفلتي وزللي، وتتقبل مني صالح عملي وتجعله خالصاً لوجهك الكريم، وفي ميزان حسناتي يوم العرض عليك، إنك أكرم مسؤول..

وأنت أخي القارئ! إن وجدت تقصيراً أو قصوراً فلا تعجب.. وإن رأيت زللاً فلا تضن علي بنصحك وتسديدك، خدمة منك لكتاب ربنا جل جلاله، ونصحاً لأخيك المسلم.

وإن انتفعت بهذا الكتاب فلا تنسني من دعوة صالحة بظهر الغيب، عسى أن توافق ساعة إجابة، وعسى أن توافق ساعة إجابة وعسى أن تكون دعوتك لي سبب خير ورحمة، ولك بمثل ما تدعو، والله يتولانا وإياك بهدايته ورحمته..

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان، وأنصار دينه وحملة دعوته إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم وعلومه:

ـ معاني القرآن للإمام الفراء

ـ المفردات في غريب القرآن للإمام الأصفهاني

ـ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي

ـ الأمثال في القرآن، للإمام ابن القيم.

ـ البرهان في علوم القرآن، للإمام الزركشي

ـ الإتقان في علوم القرآن، للإمام السيوطي.

ـ الدر المنثور، للإمام السيوطي.

ـ روح المعاني للإمام الآلوسي

ـ قاموس القرآن، للإمام الدامغاني

ـ في ظلال القرآن، لسيد قطب.

ـ التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب.

ـ صفوة التفاسير، لمحمد علي الصابوني

ـ الأمثال في القرآن، د. محمود بن الشريف

ـ مناهل العرفان، للشيخ محمد الزرقاني

ـ منهج تربوي فريد في القرآن، د. محمد سعيد البوطي

٢ـ الحديث النبوي وعلومه

ـ صحيح البخاري.

ـ صحيح مسلم.

ـ سنن الترمذي

ـ مسند أحمد.

ـ شرح الإمام النووي على مسلم.

ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر.

ـ الأمثال في الحديث النبوي، للإمام الأصبهاني.

ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام ابن الأثير.

ـ فيض القدير للإمام المناوي.

ـ التصوير الفني في الحديث الشريف، د. محمد الصباغ.

٣ـ اللغة العربية وعلومها

ـ أسرار البلاغة للإمام الجرجاني.

ـ أساس البلاغة للإمام الزمخشري

ـ القاموس المحيط للإمام الفيرزآبادي.

ـ زهر الأكم في الأمثال والحكم، للإمام اليوسي.

ـ تاريخ آداب العرب، لمصطفى الرافعي.

٤ـ متفرقات:

- إعلام الموقعين، للإمام ابن القيم.

- وحي القلم، لمصطفى الرافعي.

- منهاج التربية الصالحة، للشيخ أحمد عز الدين البيانوني

فهرس المحتويات

الرقم	الموضوع	الصفحة
١	الإهداء	٢
٢	تصدير	٣
٣	المقدمة	٤
٤	المبحث الأول: في معنى المثل وضرب الأمثال، وأنواعه، وأوجه وروده في القرآن	٨
٥	المطلب الأول: الأصل اللغوي للمثل، وورده القرآني	٩
٦	نظرة جامعة	١٣
٧	المطلب الثاني: أنواع الأمثال ونماذجها	١٦
٨	المطلب الثالث: معنى (ضرب) الأمثال	٢١
٩	المطلب الرابع: الفرق بين الحكمة والمثل	٢٣
١٠	المطلب الخامس: أهمية الأمثال وفائدتها في القرآن الكريم	٢٦
١١	المطلب السادس: مواقف الناس من أمثال القرآن الكريم	٣٤
١٢	المطلب السابع: النهي عن ضرب الأمثال لله	٣٨
١٣	المطلب الثامن: من خصائص (الأمثال القرآنية) وإعجازها	٤٤
١٤	المبحث الثاني: الأهداف التربوية لضرب الأمثال في القرآن الكريم	٥٣
١٥	تمهيد: الفرق بين الأهداف التربوية والآثار	٥٤
١٦	الأهداف التربوية وأنواعها	٥٦
١٧	المبحث الثالث: الآثار التربوية لضرب الأمثال في القرآن الكريم	٦٣
١٨	النوع الأول: الآثار الظاهرة	٦٧

١٩	النوع الثاني: الآثار التربوية من حيث المضمون	٧١
٢٠	نظرة جامعة	١٢٧
٢١	المبحث الرابع: كيف يستفيد المربي من الأمثال القرآنية أو: الأمثال القرآنية في الميدان التربوي	١٣٥
٢٢	المبحث الخامس: التصنيف الموضوعي للأمثال القرآنية	١٤٣
٢٣	الخاتمة	١٥٠
٢٤	المصادر والمراجع	١٥٣
٢٥	فهرس المحتويات	١٥٦